شرح

الأصول الستة

تصنيف شيخ الإسلام

محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي

المتوفى سنة (١٢٠٦) رحمه الله تعالى

شرحها

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

اعتنى بها وعلق عليها

أبو عبد العزيز منير الجزائري

دار الفرقان

للنشر والتوزيع

شرح
الأصول الستة

دار الفرقان للنشر والتوزيع ١٤٤٠/ ٢٠١٩
ردمك: ٨-٥٢-٦١٦-٩٩٣١-٩٧٨
الإيداع القانوني: السداسي الأول، ٢٠١٩
Dar Al-furquan Edition . 2019
ISBN . 978-9931-616-52-8
Dépôt Légal: 1er semestre . 2019

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٠ هـ - ٢٠١٩ م

دار الفرقان للنشر والتوزيع

20 شارع أحمد حسينة - باب الوادي - الجزائر (العاصمة)
|00213 (0) 556 96 58 10
dar.alfurquan@gmail.com

شرح
الأصول الستة

تصنيف شيخ الإسلام
محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي
المتوفى سنة (١٢٠٦) رحمه الله تعالى

شرح الشيخ
عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

اعتنى بها وعلق عليها
أبو عبد العزيز منير الجزائري

دار الفرقان
للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةُ المُعْتَنِي

الحمد لله الَّذي بنعمته اهتدى المهتدون، وبعدله ضلَّ الضَّالون، أحمده سبحانه حمد عبد نزَّه ربَّه عما يقول الظَّالمون، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وسبحان الله ربِّ العرش عمَّا يصفون، وأشهد أنَّ نبيَّنا محمَّدًا عبده ورسوله وخليله الصَّادق المأمون، اللَّهم صلِّ وسلِّم عليه وعلى آله وأصحابه الَّذين هم بهديه مستمسكون، وعلى طريقه سائرون.

أمَّا بعد:

فإنَّه «لا صلاح للعباد، ولا فلاح ولا نجاح، ولا حياة طيِّبة ولا سعادة في الدَّارين، ولا نجاة من خزي الدُّنيا وعذاب الآخرة، إلَّا بمعرفة أوَّل مفروض عليهم والعمل به، وهو الأمر الَّذي خلقهم الله ﷻ له، وأخذ عليهم الميثاق به، وأرسل به رسله إليهم، وأنزل به كتبه عليهم، ولأجله خلقت الدُّنيا والآخرة، والجنَّة والنَّار، وبه حقَّت الحاقَّة ووقعت الواقعة، وفي شأنه تنصب الموازين وتتطاير الصُّحف، وفيه

تكون الشَّقاوة والسَّعادة، وعلى حسب ذلك تُقسم الأنوار ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠] »[١].

وفي المقابل فإنَّ أعظم الذُّنوب الشِّرك بعلَّام الغيوب ﷻ، عن عبد الله بن مسعود قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ أي الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ ؟

قَالَ: « **أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهْوَ خَلَقَكَ** »[٢].

وهو أكبر الكبائر، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « **أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟**» (ثَلاَثًا) .

قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: « **الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ..**»[٣].

فلهذا فإنَّ التوحيد أعظم وأكرم ما يعتني به العبد المسلم، والشِّرك أكبر وأخطر ما يهابه ويخافه على نفسه.

وقد تنوَّعت كتابات علماء أهل السُّنَّة في هذا الموضوع بين شعر ونثر، ومطوِّل ومختِصر؛ ومن بين هؤلاء العلماء الفضلاء الأجلاء الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله « فشمَّر عن ساعد جدّه واجتهاده؛ وأعلن بالنُّصح لله ولكتابه ورسوله، وسائر عباده، دعا إلى ما دعت إليه الرُّسل، من توحيد الله وعبادته، ونهاهم عن الشِّرك،

(١) « معارج القبول » (١/ ٥٥) .

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

(٣) رواه البخاري (٢٦٥٤)، ومسلم (٨٧).

ووسائله وذرائعه؛ فالحمد لله الَّذي جعل في كلِّ زمان من يقول الحقّ، ويرشد إلى الهدى والصِّدق، وتندفع بعلمه حجج المبطلين، وتلبيس الجاهلين المفتونين»[١].

وقد كتب رَحِمَهُ ٱللَّهُ العديد من الكتب والرسائل نُصحا للأُمَّة فيما ينفعها، وتحذيرا لها فيما يضرّها في دينها ودنياها، فجزاه الله خير الجزاء.

ومن هذه الكتب المذكورة، والرسائل المشهورة **(الأُصُولُ السِّتَّة)**، وهو بحث نافع لطيف، ماتع منيف، له المكانة العالية، والمنزلة الغالية عند العلماء وطلبة العلم، لذا حفظوه وفي المجالس شرحوه.

وَمِمَّا زاد هذه المتن نفعًا - بإذن الله - شرح شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله.

ومِنْ باب التَّعاون على نشر العلم النَّافع، والسَّعي في تعميمه للحاجة الماسَّة إليه، قُمْت بالاعتناءِ بهذه الرِّسالة؛ وَأَصْلها دروس للشَّيخ فُرِّغت؛ فاستأذنْتُه في إخراجها في كُتيِّب، فما كان مِنَ الشَّيخ حفظه الله إلَّا الموافقة والتَّشجيع، فجزاه الله خيرًا[٢].

ومَا كَانَ مِنِّي إِلَّا التَّهذيب و التَّرتيب، والتَّوثيق والتَّدقيق، بَلْ حَاوَلْتُ المُحَافظَة على كلام الشَّيخ بِحُرُوفِه إِلَّا مَا يَقْتَضِيه المَقَامُ مِنْ إِضَافَة مَا يُربط به الكَلَام لِتَمَامِ المَعْنى مع التَّعليق على بعض المواضع منها.

---

(١) «الدّرر السنيَّة في الأجوبة النَّجديَّة» (١/ ١٦).

(٢) كان ذلك في بيته بالمدينة النَّبويَّة، يوم الأربعاء ٢ ربيع الآخر ١٤٣٩هـ، الموافق لـ ٢٠/ ١٢/ ٢٠١٧م.

سائلًا الله عَزَّ وَجَلَّ أنْ يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأنْ يجزي خير الجزاء كل من أسهم في إخراجه للمنتفعين، إنه سميع مجيب الدعاء.

وصلَّى الله على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

مُحِبُّكُم فِي الله
أبو عبد العزيز منير الجزائري
abou-abdelaziz@hotmail.fr

مقدِّمة الشَّارح:

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله مِنْ شرور أنفسنا ومِنْ سيئات أعمالنا، مَنْ يهده الله فلا مضلّ له، ومَنْ يضلل فلا هادي له، وأشهد أنّ لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمَّداً عبده ورسوله صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعد:

فبين أيدينا رسالة قيّمة مختصرة للإمام المجدِّد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهّاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ ؛ جمع فيها أصولاً ستَّة عظيمة بُيّنت في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ بيانًا وافيًا، وذُكرت لها الدلائل البيِّنات والشواهد الواضحات في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ وسنَّة رسوله ﷺ؛ بحيث كانت واضحةً وضوحـًا لا خفاء فيه، وظاهرةً ظهوراً لا التباس فيه، ومع ذلك فقد ضلَّ فيها أكثر النَّاس وانحرفوا فيها عن جادّة الصّواب وعن الطَّريق السَّويَّة، وقد نصح هذا الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ للأمَّة بجمعه هذه الرِّسالة المشتملة على أصول ستَّة مِنْ أصول هذا الدِّين المبيَّنة في الكتاب والسُنَّة مشيراً إلى أهمِّيتها وعظم شأنها ومنبِّهـًا في الوقت نفسه على نوع الانحراف الَّذي وقع فيه أكثر النَّاس فيما يتعلَّق

بهذه الأصول السِّتَّة.

فجزاه الله خير الجزاء، ورحمه رحمةً واسعةً على ما قدَّم فيه نفعًا للأمَّة.

هذا؛ والله الكريم أسأل أن ينفع بهذا الجهد، وأن يجعله لوجهه خالصا ولسنة نبيه مطابقا، إنه سبحانه وتعالى خير مسؤول، وهو أهل الرجاء وهو حسبنا ونعم الوكيل.

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

[قال الإمام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

بسم الله الرحمن الرحيم

من أعجب العجاب وأكبر الآيات الدالة على قدرة الملك الغلاب ستة أصول بيّنها الله تعالى بيانا واضحا للعوام فوق ما يظن الظانون، ثُمَّ بعد هذا غلط فيه كثير من أذكياء العالم وعقلاء بني آدم إلا أقل القليل].

الشَّرْحُ:

الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ بدأ هذه الرِّسالة بذكر عظم شأن هذه الأصول السِّتَّة، وأنَّها قد بُيِّنَتْ في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وفي سنَّة رسوله صلوات الله وسلامه عليه بيانـًا وافيـًا، وقد ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذه الأصول وأشار في بداية حديثه عنها أنَّها أصولٌ ستَّةٌ، وذِكره رَحِمَهُ ٱللَّهُ لهذا الرَّقم في بداية حديثه عن هذه الأصول نوع مِنَ الإعانة لطالب العلم على ضبط العلم، فلو أنَّه ذكر هذه الأصول نثرًا دون إشارة إلى رقم يجمعها ربَّما ضعف ضبط طالب العلم لها، لكن إذا قرأها وعرف أنَّها ستَّة استجمع ذهنه لضبطها؛ وهذا من هدي النَّبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في سنَّته عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؛ قال: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ»(١).

وقال: «اضْمَنُوا لِي سِتًّا مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَضْمَنْ لَكُمُ الْجَنَّةَ: اصْدُقُوا إِذَا حَدَّثْتُمْ، وَأَوْفُوا إِذَا وَعَدْتُمْ، وَأَدُّوا إِذَا اؤْتُمِنْتُمْ، وَاحْفَظُوا فُرُوجَكُمْ، وَغُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، وَكُفُّوا

(١) رواه البخاري (١٦٩)، ومسلم (٤٣).

أَيْدِيَكُمْ»(١).

وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**»(٢).

فيأتي عنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مثل هذا كثير، فلا يذكر الأمور نثراً وإنَّما يذكر لها رقما يحويها بحيث تُضبط المسائل المقصود بيانها و تقريرها وإيضاحها؛ ولهذا قال رَحِمَهُ اللَّهُ ستَّة أصول.

وقوله «**أصول**»؛ الأصل: هو ما يُبنى عليه غيره، وهو الأساس لغيره، وهذا تنبيه من المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ إلى أنَّ هذه مِنَ الأصول الكبار والقواعد الجوامع الكليَّة، ومع ذلك إلَّا أنه قد ضلَّ فيها أكثر النَّاس.

وبدأ رَحِمَهُ اللَّهُ هذه الرِّسالة بالتَّعجُّب الشَّديد الَّذي طرحه رَحِمَهُ اللَّهُ؛ ليشاركه طالب العلم في التعجُّب والتّأمّل في هذا الأمر؛ فقال: «**من أعجب العجاب**» أي: من أشدِّ الأمور إثارة للعجب في الأذهان.

«**وأكبر الآيات الدّالة على قدرة الملك الغلاّب**»: هنا نبَّه على أمرين:

نبَّه على أنَّ الأصول الآتي تقريرها مع مخالفة أكثر النَّاس لها رغم وضوحها تدلُّ على أمر عجيب جدًّا في حال النَّاس وواقعهم.

وتدلّ أيضًا في الوقت نفسه على كمال قدرة الله سبحانه وتعالى.

«**على قدرة الملك الغلاّب**»؛ «**الملك**»: أي الَّذي بيده الملك، المتصرِّف في هذا

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (٢٢٧٥٧)، وابن حبّان في «صحيحه» (٢٧١)، والحاكم في «مستدركه» (٨٠٦٦)، وحسَّنه الألباني في «السّلسلة الصَّحيحة» (١٤٧٠).

(٢) رواه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

الكون عطاءً ومنعًا، خفضًا ورفعًا، قبضًا وبسطًا، يعزّ ويذل، ويخفض ويرفع، ويعطي ويمنع، ويهدي ويضل.

فالَّذي يتأمَّل هذه الأصول السِّتَّة وواقع النَّاس معها تدلُّه على كمال قدرة الملك الغلَّاب؛ و«الغلَّاب» كما قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾[يوسف]، غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ[1]: أي حكمه نافذ، لا معقب لحكمه ولا رادّ لقضائه، يتصرّف في مملكته وفي مخلوقاته كيف شاء، ويدبّرها ﷻ كما يريد، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، من يهده الله فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلا هادي له، ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر]،فالأمر بيده تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ .

ومِنَ الدَّلائل على أنَّ الأمر بيده هذه الأصول السِّتة الواضحة والبيِّنة وضوح الشَّمس، ومع ذلك يضلُّ أكثر النَّاس فيها عن سواء السَّبيل وينحرفون عن الجادَّة السَّويَّة؛ فهذا أمر مدعاة للتعجب الشَّديد، وفي الوقت نفسه فيه دلالة على قدرة الله وكمال ملكه، وأنَّه سبحانه وتعالى غالب على أمره، وأنَّ حكمه نافذ وأنَّ الأمور بيده ﷻ، يحكم في خلقه بما يشاء ويقضي فيهم بما يريد، لا معقب لحكمه ولا رادَّ لقضائه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ .

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: **«وأكبر الآيات الدّالة على قدرة الملك الغلّاب ستة أصول بيّنها الله تعالى بياناً واضحاً للعوام فوق ما يظن الظّانون»**: هذا تأكيد من المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ على وضوح هذه الأصول السّتة، ووضوحها وبيانها في كتاب الله ﷻ وسنّة نبيّه ﷺ ؛

(١) يُنظر: «فقه الأسماء الحسنى» (ص٢٦١) لشيخنا عبد الرَّزَّاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله.

قال: «**بيّنها الله بياناً واضحاً**» أي: جعلها أموراً بيّنة ليستْ ملتبسة، أي ظاهرة لكلّ أحد، فليس فيها خفاء ولا يكترثها غموض، ولا يلابسها تعقيد، بل هي واضحة ظاهرة في كتاب الله ﷻ، وكذلك في سنّة نبيّه ﷺ.

«**بياناً واضحاً للعوام**»: أي أن وضوح هذه ليس أمراً مختصًّا بأهل العلم أو بالرّاسخين فيه فقط؛ بل هي واضحة حتى للعوام؛ فضلاً عمن هو أرفع وأعلم وأفقه منهم، فهي واضحة للعوام تمامًا «**فوق ما يظنه الظانون**»: يعني وضوحها فوق ما قد يُظنّ، فقد يظنها الإنسان واضحة لكن وضوحها القوي الظاهر البين فوق ما يظنه الظانون، ومتى يظهر هذا المعنى الَّذي قاله الشّيخ رحمه الله؟ عندما يتأمّل المسلم أنواع الأدلَّة الواردة في الكتاب والسُّنَّة في تقرير هذه الأصول، وأنها أقيمت عليها الحجج البيّنات بأنواع من الأدلة؛ بحيث أن هذا البيان لهذه الأصول فوق ما قد يُظنّ ، لا من حيث تنوّع الأدلة فقط، بل حتى من حيث كثرة عددها.

فمثلا الأصل الأول الَّذي سيأتي الكلام عنه وهو (**إخلاص الدين لله وبيان ضده الَّذي هو الشِّرك..**)؛ قال الإمام ابن القيِّم رحمه الله «**وغالب سور القرآن بل كلُّ سورة في القرآن فهي متضمِّنة لنوعي التَّوحيد؛ بل نقول قولا كليًّا إنَّ كلَّ آية في القرآن فهي متضمِّنة للتَّوحيد شاهدة به داعية إليه**»(١).

فالشَّاهد أنَّ هذه الأصول بُيِّنت بيانًا واضحًا لا خفاء فيه، وليس هذا البيان لأهل العلم فقط؛ بل يفهمها كلُّ مَنْ يفهم اللِّسان العربي الَّذي أُنزل به القرآن الكريم.

---

(١) «مدارج السَّالكين» (٣/٤٥٠).

« **ثُمَّ بعد هذا كله غلط فيها كثير من أذكياء العالم**»: أي رغم وضوحها الشَّديد وبيانها البيَّن وكونها لا خفاء فيها ولا التباس؛ ومع ذلك كلّه غلط كثير من أذكياء العالم، هنا قوله: «**غلط فيها**» هذا موضع العجب، وهنا ظهور الآية الَّتِي قال: «**آيات دالة على قدرة الملك**».

فتعجب غاية العجب عندما يكون هناك طريق يوصل إلى البلد المقصود، واللَّوحات الإرشاديّة للطريق كثيرة جدّاً، فكلّما تمشي خطوتين تجد لوحة إرشاديّة، مثلا: طريق مكة وسهم يشير إليه، ثُمَّ تمضي وفي الطريق أيضـًا تجد السهم يشير، ثُمَّ في الوقت نفسه تجد كثيراً من الناس يريدون مكة ولكنَّهم يأخذون ذات اليمين وذات الشمال يضيعون ويضلون وينحرفون!! هذا أمر في غاية العجب؛ لأنَّك إذا تأمَّلت وضوح الطَّريق وكثرة اللَّوحات الإرشادية الدَّالة عليه ثُمَّ نظرت إلى أكثر النَّاس ينحرفون عنه، تتساءل وتقول: هل الطريق غير واضح؟ ثُمَّ تجيب نفسك: وهل أوضح من هذا؟! هل فيه أزيَد من هذا الوضوح؟! فهذا أمر في غاية العجب، كثرة الدَّلائل والحجج والبراهين، ثُمَّ في الوقت نفسه كثرة المنحرفين والزائغين والضّالين، وفيه أيضـًا دلالة على أنَّ الأمور بيد الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: الهداية، الاستقامة، صلاح العبد، التَّوفيق، وسلوك العبد للطَّريق القويم.

وقد سُئل أعرابيٌّ قيل له: بما عرفتَ ربَّـك؟ قال: «**بنقضِ العزائم وصرف الهِمم**»[1] ؛ عرفتُ ربّي بهذا، أنَّ عزمي على شيء أو همِّتي على أمر مِنَ الأمور

---

(١) قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعليقـًا على هذا الكلام: « فالإنسان يعزم على الشَّيء ثـمَّ لا يدري إلَّا وعزيمته منتقضة، بدون سبب ظاهر » «القول المفيد» (٢/ ١٧٠).

فتنتقض، وأتَّجه إلى غيره وأنا عازم إلى أمر معين وإذا بي أتوجه إلى آخر، فهذا يدلُّ على أنَّ الأمور بيد الله ﷻ، وليس هذا معناه أن العبد لا مشيئة له ولا اختيار؛ بل له مشيئة تدل عليها النّصوص في كتاب الله وسنة نبيّه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ويدل عليها واقع الإنسان، ولو تأمّل الإنسان واقعه وحياته وأموره يجد أنَّ عنده مشيئة واضحة يختار بها طريق الخير وطريق الشّر، ولكن مشيئته تحت مشيئة الله، قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير].

قال: «**غلط فيها كثير من أذكياء العالم**» وهذا فيه دلالة على أنّ الذّكاء وحده لا يكفي العبد في استقامة أموره وصلاح أحواله، فكم ممن ذكاؤهم مفرط، وذهنهم وقّاد، وفهمهم قويّ، لكنّهم يضلُّون كما قال الله تعالى: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ۝٧﴾ [الروم]، فذكاؤه خارق وقوي جدا، لكن أهمّ أمر خُلق لأجله ووُجد لتحقيقه ليس عنده منه علم؛ بل تُعرض عليه حجج واضحات ودلائل مقنعات فيرفضها ويأباها ولا يقبلها ! لا لكونه لا يفهم، بل هو يستوعب أمورًا دقيقةً وعسيرة الفهم، ثُمَّ يُعرض عليه أبين الأمور وأوضحها فلا يفهمها ولا تقبلها نفسه!

قال: «**ومع ذلك غلط فيها كثير من أذكياء العالم وعقلاء بني آدم**» وهؤلاء الَّذين وصفهم الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالذَّكاء هم في الحقيقة كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « أُوتُوا ذَكَاءً وَمَا أُوتُوا زَكَاءً، وَأُعْطُوا فُهُومًا وَمَا أُعْطُوا عُلُومًا، وَأُعْطُوا سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ

كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ [الأحقاف]»[1]؛ فما أغنى عنهم ذكاؤهم ولا أغنت عنهم عقولهم ولا انتفعوا بها، وإذا كان عنده انتفاع بعقله فانتفاعه به محدود ينتهي بموته وليس لعقله ثمرة بعد ذلك؛ ولهذا يندم أهل النار غاية النّدم لعدم استعمالهم لعقولهم فيما خُلقت له وأُوجِدتْ لتحقيقه، ويقولون نادمين: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك]، لكن فساد العقل وانحرافه يفضي بالإنسان إلى هذا الزَّلل، والعياذ بالله.

قال: «إلاّ أقل القليل» أي: أنَّ أكثر النّاس ضلُّوا في هذا الباب، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف].

وقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ] ، وقال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾[يوسف]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

فأقلُّ القليل هم الّذين هُدوا إلى صراط الله المستقيم واستقاموا على الجادة السويَّة، وأكثر النَّاس ضلُّوا عنْ سواء السَّبيل.

والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قصد بهذه المقدِّمة أن ينبِّه طالب العلم على أهميَّة هذه الأصول السِّتَّة وعظيم مكانتها -هذا من جهة- وأن ينبِّه طالب العلم على ضرورة إقباله الصَّادق على الله تبارك وتعالى ليهديه و يثبّت قلبه وأن لا يزيغه عن سواء الصراط، ومن دعوات النَّبيِّ ﷺ: « **يا مُقلِّبَ الْقُلوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ** »[2].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٥/١١٩).

(٢) رواه الترمذي (٢١٤٠)، وابن ماجه (٣٨٣٤)، وحسَّنه الألباني في «السلسلة الصَّحيحة» (٢٠٩١).

ومن دعواته ﷺ أيضـًا: «**اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي أَنْتَ الْحَي الَّذِي لاَ يَمُوتُ وَالْجِنُّ وَالإِنْسُ يَمُوتُونَ**»(١).

وأراد أنْ ينبِّهه أيضًا على ضرورة العناية بهذه المسائل؛ بضبطها وإتقانها، وأراد أنْ ينبِّه أنَّ الذَّكاء وحده لا يكفي إذا لم يُرزق صاحبه السَّداد والتَّوفيق مِنَ الله جَلَّ وَعَلَا، فلا يغتر الإنسان بما عنده مِنْ ذكاء وما لديه مِنْ نباهة، فكم مِنْ ذكيٍّ لم ينتفع بذكائه ولم يستفد منه، وأراد أن ينبِّه أيضـًا على خطورة الشُّبهات وأنَّها تُضر بالنَّاس غاية الضَّرر لأنَّها تقلِب الحقائق وتخلط الأوراق وتُردي بالنَّاس وتُخلُّ بالعقول وتفسد الأذهان، فالشُّبهات غاية في الخطورة، وإذا أصغى الإنسان لها وأعطاها سمعه أضرَّت بعقيدته، و بعبادته، وبِصِلَتِه بربِّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

فهنا تنبيه مِنَ المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ لطالب العلم ألَّا يخاطر بدينه بسماعه للشُّبهات ومطالعته لها؛ لأنَّها خطيرة جِدّاً وصاحب البدعة ملقَّنٌ حجته؛ أي يشبِّه على النَّاس ويلبِّس عليهم، فمَنْ أرخى لنفسه العنان في سماع الشُّبهات وأصغى إليها أفسدتْ قلبه.

ولا يقول الإنسان في هذا المقام: أنا عندي ذكاء وعندي عقل أميِّز ولا تضرّني! فقد كان أئمّة السَّلف وعلماء السُّنَّة رحمهم الله على ما آتاهم الله عَزَّوَجَلَّ مِنَ العلم والفهم والذَّكاء، ما كانوا يصغون إلى مجادِل ولا لأرباب الشبهات وأهل الأهواء ولا يتيحون لهم الحديث في مجالسهم، حتى ولا نصف كلمة كما جاء عن بعضهم،

---

(١) رواه البخاري (١١٢٠)، و مسلم (٢٧١٧)، واللَّفظ له.

كلُّ ذلك حفظا للدِّين ومحافظة عليه وصيانة له مِنَ الزَّلل .

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

[الأصل الأول: إخلاص الدين لله تعالى وحده لا شريك له، وبيان ضده الَّذي هو الشرك بالله، وكون أكثر القرآن في بيان هذا الأصل من وجوه شتى بكلام يفهمه أبلد العامة، ثُمَّ لما صار على أكثر الأمة ما صار أظهر لهم الشيطان الإخلاص في صورة تنقص الصالحين والتقصير في حقوقهم، وأظهر لهم الشرك بالله في صورة محبة الصالحين واتباعهم] .

الشَّرْح:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ : «**الأصل الأوّل: إخلاص الدّين لله تعالى وحده لا شريك له**»: بدأ هذه الأصول بهذا الأصل العظيم لأنَّه أصل الأصول وبقيتها تبع له، لأَنَّها أصول تعين على تحقيق هذا الأصل، فالمقصود أصالة هذا الأصل، وهي الغاية الَّتِي خُلق النَّاس لأجلها وأوجدوا لتحقيقها.

وهو «**إخلاص الدّين لله**»: ومعنى الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ: أي أن يأتي العبد بالدِّين خالصًا لله جلَّ وعلا، أيْ نقِيًّا صافيًا لم يجعل مع الله تبارك وتعالى فيه شريك؛ لأنَّ معنى الخالص في لغة العرب: أي الصَّافي النَّقي، ما لا شائبة فيه تكدِّره.

ويوضح لنا هذا المعنى من حيث اللُّغة قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [النحل].

فقوله ﴿لَّبَنًا خَالِصًا﴾: وصف اللَّبنَ بأنَّه خالص، أي: يتصف بالصَّفاء والنَّقاوة، وأخبر عَزَّوَجَلَّ أن هذا اللّبن الخالص قد خرج من بين فرث ودم، حتَّى قال بعض أهل الخبرة: إنَّ خروجه من بين الفرث والدّم يكون عند الحلب وفي وقته.

ومن الدّلائل على ذلك من حيث الواقع أنَّ النّاقة على سبيل المثال إذا أراد صاحبها حلبها يأتي إلى ثديها فيحلب لا يجد حليباً، فإذا قرَّب ولدها منها ونظرت إلى ولدها عند ضرعها أدرَّت الحليب ثُمَّ حلب، فيحلب من جهة وولدها يرضع من جهة أخرى، فيخرج الحليب من بين فرث ودم صفته خالص أي: لا ترى فيه نقطة دم ولا ترى فيه قطعة فرث وهو للتو خرج من بين الفرث والدم، صافٍ مصفَّى نقي منقَّى، أخرجه الله تعالى بهذه الصفة خالصاً، ثُمَّ جعله أيضاً سبحانه وتعالى سائغاً، مع علم الإنسان بمخرجه لكنه يستسيغه ويستلذه ويرى له طعمًا لذيذاً.

الشّاهد قوله: ﴿خَالِصًا﴾ أي صافيا نقيّا لا شائبة فيه، فاللّبن لما لم يكن فيه نقطة دم وقطعة فرث خرج صافيا وصف بهذا الوصف ﴿خَالِصًا﴾ أي صافيا نقيّا[1].

وقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ٥﴾ [البيّنة]، وقوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، هو الدّين الصافي النقي الّذي لم يقصد به إلا الله: لم يُتقرَّب به إلّا لله، فإذا دخل نية العبد في دينه وفي قرباته سوى الله جلّ وعلا، وقصد التقرَّب إليه خرج من الإخلاص لأنَّه لم يصبح صافياً، ولهذا كان الشِّرك: عدل غير الله تبارك وتعالى بالله، فالمشرك خرج من الإخلاص لأنه عدل غير الله بالله وسوّى غيره جل جلاله

(١) قال الإمام ابن كثير رحمه الله: «قوله: ﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا﴾ أي: **يتخلَّص الدَّم بياضه وطعمه وحلاوته** من بين فرث ودم في باطن الحيوان، فيسري كلٌّ إلى موطنه، إذا نضج الغذاء في معدَّته تصرف منه دم إلى العروق، ولبن إلى الضَّرع، وبول إلى المثانة، وروث إلى المخرج، وكلٌّ منها لا يشوب الآخر ولا يمازجه بعد انفصاله عنه، ولا يتغيَّر به» «تفسير القرآن العظيم» (٤/ ٥٨١).

به في إعطاء غير الله من حق الله وتبارك وتعالى وخصائصه سبحانه، وهذا نقيض الإخلاص.

ولهذا يمكن أن نعرِّف الإخلاص بمعناه بحيث نقول: الإخلاص هو الدِّين الصَّافي النَّقي الَّذي لم يرد به إلاَّ الله.

ويمكن أن نعرفه بنفي ضدِّه، فنقول: الإخلاص هو الَّذي لا شرك فيه.

والشرك نوعان: نوعٌ ينافي التَّوحيد من أصله، ونوعٌ ينافي كماله الواجب.

- نوع ينافي التَّوحيد من أصله وهو الشِّرك الأكبر النَّاقل مِنْ ملَّة الإسلام؛ وهو تسوية غير الله بالله ﷻ فيما هو مِنْ خصائصه تبارك وتعالى.

والشِّرك يقع في أنواع التَّوحيد الثَّلاثة: الشِّرك في الربوبيَّة، والشِّرك في الألوهية، والشِّرك في الأسماء والصِّفات، فإعطاء غير الله شيئًا من خصائص الله في ربوبيته، أو ألوهيته، أو أسمائه وصفاته، هذا شرك أكبر ناقل من ملَّة الإسلام، والمعترك بين الأنبياء وأقوامهم هو في شرك العبادة، أما ما يتعلق بالإقرار بربوبية الله فالغالب يقرّون بأنَّه الرَّب الخالق الرَّازق، ومن أنكر منهم أنكر على وجه المعاندة والاستكبار؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤].

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الإسراء:١٠٢].

فغالب جحد مَنْ جحد عن استكبارٍ ومعاندة، والمعترك في هذا الباب بين الأنبياء وأقوامهم في باب العبادة وإخلاصها لله ﷻ وعدم جعل الشريك معه فيها كما سبق.

- والنوع الثاني: الشِّرك الأصغر: وهو كل ما جاء في النُّصوص وصفه شركًا ولم يصل إلى رتبة الشِّرك الأكبر النَّاقل مِنَ الملَّة؛ كيسير الرِّياء، وكشرك الألفاظ،

مثل حلف الإنسان بغير الله، وقوله: (ما شاء الله وشئت)، وقوله: (لولا البط لأتانا اللُّصوص)، ونحو ذلك من الألفاظ الشِّركية الَّتِي يصدر من الإنسان لفظها ولا يعتقد حقيقتها ومضمونها من تسوية لغير الله ﷻ بالله(١).

قال: «**الأصل الأوّل: إخلاص الدّين لله تعالى وحده لا شريك له**»: إخلاص الدِّين لله أي: إخلاص تدين العبد لله، وتقربه إليه بالأعمال الصَّالحات والطَّاعات الزَّاكيات.

إخلاص الدّين لله: أيْ لا لغيره؛ بأن يقع العمل مِنَ العامل مبتغياً به وجه الله سبحانه وتعالى، لا يريد به إلاَّ الله والتَّقرُّب إليه ونيل رضاه سبحانه وتعالى.

وفي قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إخلاص الدين لله تعالى وحده لا شريك له» تنبيه إلى أنَّ الإخلاص له ركنان لا يكون إلا بهما؛ وهما: الإثبات والنَّفي.

١/ الإثبات في قوله: «**وحده**».

٢/ والنَّفي في قوله «**لا شريك له**».

فلا يكون العبد مخلصاً إلاَّ بالنَّفي والإثبات وهما ركنا التَّوحيد؛ إثبات العبادة بكلِّ معانيها لله وحده ونفيها عمّن كل من سواه كما هو واضح في كلمة التَّوحيد «**لا إله إلاّ الله**» فإنَّها قائمة على هذين الركنين: نفي عام في أولها، وإثبات خاص في آخرها.

«**لا إله**» نفي للعبودية عن كل من سوى الله، و«**إلاَّ الله**» إثبات للعبوديَّة بكلِّ

---

(١) انظر كلامًا مهمًّا ومفصَّلا حول هذا المبحث من كلام شيخنا عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله في كتابه «شرح الدُّروس المهمَّة لعامة الأمَّة» (ص١٠٤).

معناها لله ﷻ وحده، فمن نفى ولم يثبت لا يكون موحِّداً، ومن أثبت ولم ينفِ لا يكون موحِّداً، بل لا يكون من أهل التَّوحيد إلاَّ بالنَّفي والإثبات، من نفى بدون إثبات قال «لا إله» واكتفى بهذه الكلمة دون أن يثبت الألوهيّة لله بعد نفيها عمّن سواه فإن هذا إلحاد، وعقيدة الملاحدة: (لا إله والحياة مادة) نفيٌ لوجود الإله أصلاً.

ومن أثبت ولم ينف لا يكون موحِّداً؛ من قال: أنا أؤمن بأنَّ الله معبود ولكن لا أنفي العبودية عمن سواه؛ هذا لا يكون موحِّداً بل هو مشرك.

والإخلاص بُيِّن في القرآن والسُّنَّة النَّبويَّة ورُغِّب فيه، والشِّرك كذلك بُيِّن وحذِّر منه فيهما، وتنوعَّت الدَّلائل فيهما في بيان الشِّرك وبيان خطورته والتَّحذير منه وسوء عاقبته على أهله، وتمر بك في القرآن آيات كثيرة فيها ذكر الشِّرك والتَّحذير منه وذمِّ المشركين والتحذير منهم، ولو أنَّك رجعت إلى بعض المعاجم المفهرِسة لألفاظ القرآن عند كلمة (شرك) وتصريفاتها تجدها وردت فيه وروداً كبيرا في مواضع كثيرة جداً ؛ ذمًّا له وتحذيراً من أهله وبياناً لسوء عواقبهم في الدُّنيا والآخرة، هذا ما كان منها بلفظ (شرك) ، وكذلك لو نظرت إلى الألفاظ الأخرى: ﴿وَمَنْ يَدْعُو مَعَ اللهِ﴾ ـ مثلاً ـ هذا أيضاً تحذير مِنَ الشِّرك ولو لم تذكر الكلمة نفسها؛ كقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ [الإسراء].

وقوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ [فاطر].

وقول الله ﷻ: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١].

وَقوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء].

فهذا كلّه ذمٌّ للشّرك، فقد ذُمَّ في القرآن بذكره بلفظه، وذُكر أيضًا بألفاظ ومعانٍ وتقريرات أخرى، فبُيِّن بيانًا وافيا واسعًا شافيا كافيًا في كتاب الله ﷻ.

قال: «**وكون أكثر القرآن في بيان هذا الأصل من وجوه شتى**»؛ القرآن أكثره في بيان هذا الأصل من وجوه شتى، هذه الكلمة تفتح لك بابًا شريفًا مِنَ العلم وأنت تقرأ القرآن، فأعظم الأمور المبيّنة في القرآن هو التَّوحيد والتَّحذير من ضدِّه وهو الشِّرك، وبُيِّن في القرآن بيانًا شافيًا يفهمه الناس، فلم يكتفِ المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: يفهمه العامة، بل قال: «**يفهمه أبلد العامة**» أي: واضح جداً، وبأنواع مِنَ الأدلَّة؛ فكيف يليق بمسلم عاقل يمرُّ عليها ولا يدري ما هي؟! ولا يفهم معناها، أو يتجاهلها، أو يعرض عن فهمها، أو يرتكب المسلك الَّذي يرتكبه مَنْ ضلُّوا عن سواء السبيل بالصّد عن تدبِّر القرآن -وهذا سيأتي الكلام عليه عند المصنّف- صدّ النّاس عن تدبّر القرآن وفهم آياته، وبعض العوام إذا ذُكر له آيات التَّوحيد والتَّحذير مِنَ الشِّرك يقول: (هذه آيات مِنَ القرآن، وفهمه ليس لكل أحد) هكذا يقول بعضهم! أي: إنَّما فهم القرآن خاص بالمجتهدين، والمجتهد صفته كذا وكذا، ونحن لا نفهم ولا يجوز لنا أن نحاول أن نفهم، فهكذا لُبّس على كثير مِنْهُمْ، وأصبح يقرأ آيات التوحيد والآيات المحذّرة مِنَ الشِّرك ولا يحاول أَنْ يفهم مِنْهَا شيئًا، ويبقى فهمه على ضوء ما قرَّر له أشياخُه.

وقد مرّ معي في بعض الكتب قصّة جميلة في هذا الباب: وهي أنَّ أحد الذين منَّ

الله عليهم بفهم التوحيد جلس مع رجل مِنَ العوام ثُمَّ وجده وقع في أمر شركي فنهاه عنْ الشِّرك وتلا عليه آية مِنَ القرآن في التَّحذير منه، كقول الله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء]، أو ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأحقاف].

فقال له ذلك الرجل: لِمَاذا تذكر لنا آيات القرآن، وأنت لست مِنْ أهل الاجتهاد؟ ومثلي ومثلك لا يمكن أن يذكر الآيات ويستدل بها، فردّ كلامه بهذه الطريقة، فالرجل سكت ولم يتكلّم معه، ثُمَّ انتظر بعد قليل وكانوا في بيت ذلك الرجل، فجاءت ابنةٌ صغيرة له فسأله: مَنْ هذه؟ قال: هذه ابنتي عمرها سبع سنوات، قال: فلماذا لا تتزوجها؟! قال: اتَّقِ الله! هذه ابنتي، كيف تقول هذا الكلام؟! قال: لماذا لا تتزوّجها؟ إيش المانع؟! فغضب الرَّجل، وقال: ما سمعتَ قول الله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ﴾ [النساء: ٢٣].

فلاحظ الآن صاحب الهوى لما يؤتى له بالدّليل الَّذي يرد هواه وباطله يمتنع بهذه الشبهة، لكن إذا تحدّث في الأمور الأخرى الَّتِي يرتضيها تجده يستدل بالقرآن، فإذا قرئتْ عليه آيات الشِّرك ردّها بطرق عديدة، وإذا تليت عليه آيات في الأخلاق أو في الآداب أو في المعاملات أو في أمور أخرى يتقبلها، أما آيات الشِّرك فلِما قام في قلبه مِنَ الشبهة الَّتِي صرفته عن التوحيد وجرفته عنه يمتنع مِنْ قبول الآيات، ودعاة الضلال وضعوا في هذا الباب قاعدة سيأتي ذكرها عند المصنّف والتنبيه على خطورتها في أصل قادم، قال: «**وكون أكثر القرآن في بيان هذا الأصل من وجوه شتى**

بكلام يفهمه أبلد العامة».

« **ثُمَّ لما صار على أكثر الأمة ما صار»**: أي مِنَ الجهل بالدين ودروس العلم وقلة الفهم بكلام الله وكلام رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وتكاثر الشبهات على الناس، **«أظهر لهم الشّيطان الإخلاص في صورة تنقص الصالحين والتقصير في حقوقهم»**: فانظر إلى مكر الشيطان بهؤلاء؛ أظهر لهم الإخلاص في صورة تنقص الصالحين، وأنّ المخلص الَّذي لا يريد أن يُقصد بالعمل إلا الله تبارك وتعالى يقولون في حقّه هذا لا يعرف قيمتهم ومكانتهم، وجاههم، ولا يعرف فضلهم، وربما قالوا: هذا لا يحبهم، وربما ارتقوا أيضـًا وقالوا: هذا يشتم الصالحين ويسبّهم، وهكذا يأتي ركام مِنَ الكلام الباطل الَّذي هو مِنْ مكر الشيطان بهؤلاء .

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:**«أظهر لهم الشيطان الإخلاص في صورة تنقص الصالحين والتقصير في حقهم»** بمعنى: أن الَّذي لا يذهب إلى القبر متوجّهـًا إلى صاحبه ملتجئـًا إليه باكيًا بين يديه متذلّلا منكسراً بزعمهم لم يعرف قيمة هذا الولي الصالح، وأصبحت معرفة مكانته و قدره عند هؤلاء ارتبطت بالشِّرك، فلا يعرف منزلته إلا من جعله شريكـًا لله -هذا بزعمهم-.

ومن لا يستنجد بهم، و لا يستغيث بهم، و لا يذبح لهم، و لا ينذر لهم، و لا يصرف لهم من أنواع العبادة هذا يتنقصهم ولا يعرف مكانتهم، فهذا بزعم هؤلاء الَّذين مكر بهم الشيطان.

كذلك «**وأظهر لهم الشِّرك في صورة محبَّة الصالحين واتباعهم**» بمعنى: أنَّ الَّذي يقوى فيه التقرب إلى الصالحين بما لا يُتقرب به إلاّ إلى الله سبحانه وتعالى، هذا

محبٌ لهم وعرف قدرهم ، وأما من سواه فهو لا يعرف قدر الصالحين ولا يحبهم، وبهذا المكر ضل أكثر الناس عن سواء السبيل، مع أنه لا ارتباط بين الأمرين !

فباب الإخلاص هذا حقّ لربِّ العالمين وحده، وأما محبَّة الصَّالحين ومعرفة قدرهم لا يرتبط لا من قريب ولا من بعيد بإعطائهم شيء من خصائص الله سبحانه وتعالى، ولهذا كان النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مع بيانه للتَّوحيد سدَّ كلَّ المنافذ الَّتِي تفضي إلى الشِّرك :

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَجُلاً قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: « **أَجَعَلْتَنِي وَاللَّهَ عَدْلاً بَلْ مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ** »(١).

وما رُوي عَنِ الأَسْوَدِ بْنِ سَرِيعٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أُتِيَ بِأَسِيرٍ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَتُوبُ إِلَيْكَ وَلاَ أَتُوبُ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ:« **عَرَفَ الْحَقَّ لأَهْلِهِ** »(٢).

وَعَنْ عَبْدِ الله بْنِ الشخِّير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فقَالَ: «**السَّيِّدُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**»، قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا، وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا، فَقَالَ: «**قُولُوا بِقَوْلِكُمْ أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ**»(٣).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، يَا سَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا، وَخَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا.

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٨٣٩)، وحسَّنه الألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة» (١٣٩).

(٢) رواه أحمد في «مسنده» (١٥٥٨٧)، والحاكم في «مستدركه» (٧٦٥٤)، والطَّبراني في «المعجم الكبير» (٨٣٩)، وضعَّفه الألباني في «السِّلسلة الضَّعيفة» (٣٨٦٢).

(٣) رواه أبو داود (٤٨٠٦)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٢١١).

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ بِتَقْوَاكُمْ وَلاَ يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَاللَّهِ مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ عز وجل »(١).

وعَنِ ابْنِ عبَّاسٍ رضي الله عنه سَمِعَ عُمَرَ رضي الله عنه يَقُولُ عَلَى الْمِنْبَرِ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: « لاَ تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ »(٢).

وعن عَائِشَةَ رضي الله عنها وَعَبْدَ اللهِ بْنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنه قَالاَ: لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»، يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا(٣).

وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ أُمَّ حَبِيبَةَ وَأُمَّ سَلَمَةَ رضي الله عنها ذَكَرَتَا كَنِيسَةً رَأَيْنَهَا بِالْحَبَشَةِ فِيهَا تَصَاوِيرُ، فَذَكَرَتَا لِلنَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّ أُولَئِكَ إِذَا كَانَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ فَمَاتَ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا ، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، فَأُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(٤).

وَعَنِ الرُّبَيِّعِ بِنْتِ مُعَوِّذٍ رضي الله عنها قَالَتْ دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ غَدَاةَ بُنِيَ عَلَيَّ، فَجَلَسَ عَلَى فِرَاشِي كَمَجْلِسِكَ مِنِّي، وَجُوَيْرِيَاتٌ يَضْرِبْنَ بِالدُّفِّ، يَنْدُبْنَ مَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِهِنَّ

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٢٥٥١)، وصحّحه الألباني في «السّلسلة الصّحيحة» (١٠٩٧).

(٢) رواه البخاري (٣٤٤٥).

(٣) رواه البخاري (٤٣٦)، ومسلم (٥٣١).

(٤) رواه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨).

يَوْمَ بَدْرٍ حَتَّى قَالَتْ جَارِيَةٌ: وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « لاَ تَقُولِي هَكَذَا، وَقُولِي مَا كُنْتِ تَقُولِينَ »[1]، وجاء عنه في هذا الباب أحاديث كثيرة جدّاً.

فقد بيَّن ﷺ التَّوحيد وحذَّر من الشِّرك وحَمَى حِمَى التَّوحيد وسدَّ الذَّرائع الَّتي تفضِي بالنَّاس إلى الشِّرك والعياذ بالله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

بيَّن عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ البيان الوافي، ومع وضوح هذا الأمر وجلائه وعدم خفائه إلَّا أنَّ أكثر النَّاس ضلُّوا في هذا الباب عن سواء السبيل؛ بسبب الشبهات، وبسبب مكر الشيطان بهؤلاء، وإصغائهم لدعاة الضَّلال والباطل، وكذلك بسبب النَّشأة في المجتمعات الَّتي لا يسمعون فيها صوت مَنْ يدعو إلى التَّوحيد؛ بل إلى صوت أهل الشُّبهات فقط، والله المستعان.

ولا أنسى قصةً مرّت عليَّ مع شخصٍ كان جالساً إلى جنبي في المسجد بعد صلاة المغرب منذ سنوات، وكنت أقرأ القرآن وكان مادًّا يديه يدعو، ثُمَّ ازداد في اجتهاده بالدّعاء فأصبح له بكاء وتسمع نشيجه؛ فأثّر فيَّ خشوعه، ثُمَّ رفع صوته قليلا في دعائه فإذا به يقول في دعائه متذللا: (يا رسول الله)، ويعرض حاجاته، مستغيثاً مستنجداً! فتحدثت معه طويلاً: بدأت حديثي معه أوّلا بسؤاله عَنْ صحته وعَنْ بلده وعَنْ أولاده وعَنْ سفره وعَنْ أمور عديدة، ثُمَّ لما اطمأنَّ للحديث معي انتقلتُ إلى جانب آخر وهو أَهَمِّيَة الدُّعاء ومكانته في الدين، وأخذتُ أسوقُ له آيات

---

(١) رواه البخاري (٤٠٠١).

وأحاديث عديدة في فضله، ففرح بها لأنَّه كان يدعو، ثُمَّ التفتَ إليَّ وكأنَّ الرجل كانت عنده مشاكل أو هموم أو حاجات ويبكي يريد مِنَ الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنْ يكشفها عنه ويجلِّيها، ثُمَّ انتقلتُ إلى حديث آخر أبيِّن فيه أنَّ الدُّعاء حقٌّ لله سبحانه وتعالى وحده، وأنَّ هذه المسألة بُيِّنتْ في القرآن بيانًا واضحًا لا خفاء فيه، وأخذتُ أذكر له آيات عديدة كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمۡلِكُونَ مِن قِطۡمِيرٍ ١٣ إِن تَدۡعُوهُمۡ لَا يَسۡمَعُواْ دُعَآءَكُمۡ وَلَوۡ سَمِعُواْ مَا ٱسۡتَجَابُواْ لَكُمۡۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكۡفُرُونَ بِشِرۡكِكُمۡۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثۡلُ خَبِيرٖ ١٤﴾ [فاطر].

وقوله سبحانه ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ٥٦﴾ [الإسراء].

وقوله ﷻ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ٢٢﴾ [سبأ].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ٥﴾ [الأحقاف].

وآيات في هذا المعنى عديدة، ثُمَّ انتقلتُ إلى السُّنَّة وبدأتُ أذكر له أحاديث نبوية في ذلك، وكل ذلك وهو يصغي إليَّ، ثُمَّ ذكرت له أمثلة مِنْ أدعية النَّبيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قلت له: عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يُعَوِّذُ بَعْضَ أَهْلِهِ، يَمْسَحُ بِيَدِهِ الْيُمْنَى وَيَقُولُ: «**اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ أَذْهِبِ الْبَاسَ، اشْفِهِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لَا شِفَاءَ إِلاَّ شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا**»[١].

---

(١) رواه البخاري (٥٧٤٣)، ومسلم (٢١٩١).

وكان إذا خرج عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ من بيته قال: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ، أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَّ، أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ، أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ**»(١).

وعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَوْصَى رَجُلاً فَقَالَ: «**إِذَا أَرَدْتَ مَضْجَعَكَ فَقُلِ اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلاَّ إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ؛ فَإِنْ مُتَّ مُتَّ عَلَى الْفِطْرَةِ**»(٢).

وذكرت له نماذج واضحة لا لُبس فيها يفهمها العاميُّ فضلًا عَنْ غيره، أنْهيتُ وهو يسمع بكلِّ إصغاءٍ وإنصاتٍ، فأحببتُ أنْ أطمئنَّ هل فهم الرجل أم لا؟ وهل استوعب هذه الآيات أو لم يستوعبها؟ فطرحتُ عليه سؤالاً: ما رأيك؟

فقال لي: تقول لي ما رأيك؟! وأنت تقرأ عليَّ آيات وأحاديث؟!

فقلت: لأنني سمعتك تقول في دعائك: كذا وكذا، فأقصد بقولي: ما رأيك؟ هل استوعبت وفهمت وعقلت معاني هذه الآيات والأحاديث أم لا؟ فقال لي كلمة عجيبة: أنا من بلد كذا وكذا ـ سمى لي بلده ـ ما أعقل أن أحدا قال لي هذا الكلام! أي أنه نشأ في بلدة إذا سمع الخطيب يوم الجمعة عرض له شبهات، وإذا حضر درسًا أيضـًا عُرضت عليه شبهات، وإذا قرأ كتابا من الكتب الَّتِي حوله تعرض عليه كذلك، ثُمَّ ينشأ ويكبر ولا يسمع إلا هذا الكلام الباطل، وأما آيات التوحيد الَّتِي

---

(١) رواه أبو داود (٥٠٩٤)، وابن ماجه (٣٨٨٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣١٣٤).

(٢) رواه البخاري (٦٣١٣)، ومسلم (٢٧١٠).

هي واضحة حُجبت وغُيِّبت عنه، و حُذِّر أيضا من فهمها بقواعد باطلة، وسيأتي كلام المصنف لاحقًا عَنْ هذا الأمر .

فهذا أصل الأصول وأعظمها، وبُيِّن في القرآن بيانـًا وافيـًا يفهمه أبلد العامة؛ ومع ذلك ضلّ فيه أكثر الناس ! والله ﷻ هو الهادي إلى سواء السبيل، والتَّوفيق بيده وحده سبحانه وتعالى.

قال الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ:

[الأصل الثاني: أمر الله بالاجتماع في الدين ونهى عن التفرق فيه؛ فبيَّن الله هذا بياناً شافياً تفهمه العوام، ونهانا أن نكون كالذين تفرقوا واختلفوا قبلنا فهلكوا، وذكر أنه أمر المسلمين بالاجتماع في الدين ونهاهم عن التفرّق فيه، ويزيده وضوحاً ما وردت به السُنَّة من العجب العجاب في ذلك، ثم صار الأمر إلى أن الافتراق في أصول الدين وفروعه هو العلم والفقه في الدين، وصار الأمر بالاجتماع في الدين لا يقوله إلا زنديق مجنون].

الشَّرْحُ:

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ: «**الأصل الثاني: أمر الله بالاجتماع في الدين ونهى عن التفرق فيه؛ فبيَّن الله هذا بياناً شافياً تفهمه العوام، ونهانا أن نكون كالذين تفرقوا واختلفوا قبلنا**»: هذا الأصل مِنَ الأصول العظيمة المبيَّنة بيانًا وافيًا شافيًا في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ وفي سنَّة نبيِّه ﷺ، وقد تكاثرت النُّصوص في ذلك وتضافرت في تقريره والدَّعوة إلى الاجتماع والنَّهي عَنْ الافتراق، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأنعام].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الأنفال].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « **ونهى عن التفرق فيه** » أي: التفرق في الدين، بل اجتمعوا عليه ولا يتخذ كلٌّ لنفسه منهاجًا وطريقًا فتتفرّقون في الدّين، كلّ له رأي وكل له قول وكلّ له وجهة، وإنّما المطلوب من أهل الإيمان أن يجتمعوا على دين واحد وهو دين الله عَزَّوَجَلَّ ، وأن يعتصموا بحبل الله جميعًا، وأن يطَّرحوا التّفرّق والشِّقاق والتّدابر والتباغض والتّعادي؛ فإنَّ ذلك لا خير فيه، والخير والرَّحمة في الاجتماع، وقد ورد عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أنه قال: «**وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ**»(١): الاجتماع رحمة للأمّة، فيجتمعون على دين الله وعلى كتاب الله وعلى كلمة سواء وعلى تناصح وتعاون وتعاطف وتراحم، محقّقين قول النَّبِيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى**»(٢).

وقوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا**»(٣).

وهذه المعاني العظيمة لا يكون لها تحقّق إلا بالاجتماع ونبذ الفرقة، لأنها إذا وُجدتْ بين الناس وُجد معها كلّ شرٍّ، والاجتماع إذا وُجد بينهم وجدتْ الرحمة والخير والأمن والرّاحة والطمأنينة، وذهب عنهم الشيطان؛ ولهذا قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عَنْ التفرق «**إِنَّ تَفَرُّقَكُمْ فِي هَذِهِ الشِّعَابِ وَالْأَوْدِيَةِ إِنَّمَا ذَلِكُمْ مِنَ**

---

(١) رواه أحمد في «مسنده» (١٨٤٤٩)، وحسّنه الألباني في «السّلسلة الصّحيحة» (٦٦٧).

(٢) رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦)، واللّفظ له.

(٣) رواه البخاري (٤٨١)، ومسلم (٢٥٨٥).

الشَّيْطَانِ»(١)، قال راوي الحديث: «**كَانَ النَّاسُ إِذَا نَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْزِلًا تَفَرَّقُوا فِي الشِّعَابِ وَالأَوْدِيَةِ**» ، فانظر إلى حرص الدِّين على الاجتماع، ففي أي مكان يدعو إليه.

وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**فَعَلَيْكَ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّمَا يَأْكُلُ الذِّئْبُ الْقَاصِيَةَ**»(٢)، بينما إذا اجتمعوا وتقاربوا في حِلق العلم، في مجالس الذِّكر، وفي مجالسهم العامة، يتقاربون ويكون بينهم الألفة والمحبَّة والتَّراحم والتَّآخي؛ كل هذه معانٍ دعا إليها الإسلام وهي من أصوله الَّتِي حثَّ على تحقيقها، لتكون الأُخُوَّة كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

وفي الحديث يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: « **إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ، فَإِنَّ الظَّنَّ أَكْذَبُ الْحَدِيثِ، وَلَا تَجَسَّسُوا، وَلَا تَحَسَّسُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَكُونُوا إِخْوَانًا** »(٣).

وكما أنَّ الإسلام دعا إلى الاجتماع ونهى عَنْ الفرقة، فإنَّه حذَّر أشدَّ التَّحذير من كلِّ أمر يخدش فيه أو يخلّ به: كالغيبة والنَّميمة والحسد، وحرَّم التَّناجش والتَّدابر والتَّباغض، لأنَّها تفرِّق بين المسلمين، وتشتِّت شملهم، وتوجِد الفُرقة بينهم.

ولهذا من يطالع الأدلَّة في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنَّة نبيِّه ﷺ المشتملة على الأمر بالاجتماع والنَّهي عَنْ الفرقة يجدها كثيرة جدًّا، بُيِّنت -كما قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ- بيانًا وافيًا :«**أمر الله بالاجتماع في الدِّين ونهيه عن التَّفرّق فيه، فبيّن الله هذا بيانًا**

(١) رواه أبو داود (٢٦٢٨)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» (٢٣٦٣).

(٢) رواه أبو داود (٥٤٧)، والنَّسائي (٨٤٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» (٥٥٦).

(٣) رواه البخاري (٥١٤٣)، ومسلم (٢٥٦٣).

شافياً يفهمه العوام» فيفهمه العوام فضلا عَنْ غيرهم من طلاب العلم أو العلماء، من ذا الَّذي يخفى عليه بيان الله في كتابه، وبيان رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في سنته بالأمر بالاجتماع؟!

قال: «**ونهانا أن نكون كالذين تفرّقوا واختلفوا قبلنا فهلكوا**»؛ مما جاء بيانه في الكتاب والسُنَّة أيضًا حول هذا الأمر: الإخبار عَنْ عواقب المتفرِّقين مِمَّن كانوا قبلنا، وأنَّهم لم يبوؤوا بتفرقهم إلاَّ الفشل والخسران وضياع الدِّين وتشتُّت الشَّمل، وهلكوا.

والتَّفرُّق في الدِّين يعني لم يجتمعوا على ما بلغهم ووصل إليهم، وإنَّما وأصبح كلٌّ على قبيل وكلٌّ على وجهة.

قال: «**وذكر أنه أمر المسلمين بالاجتماع في الدين ونهاهم عن التفرّق فيه**» وهذا في آيات كثيرة مرَّ الإشارة إلى بعض منها.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «**ويزيده وضوحاً**» أي: يزيد هذا الأمر وضوحًا وبيانًا «**ما وردت به السُنَّة من العجب العجاب في ذلك**» أي: أنَّ تبيان السُنَّة لهذا الأمر وأمر النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالاجتماع وتحذيره مِنَ الفرقة جاء في السُنَّة مبيَّنًا بيانًا وافيًا ، جاء في السُنَّة من بيان ذلك العجب العجاب كما عبَّر بذلك المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ؛ يعني كمًّا كبيراً وقدراً عظيمًا من الأحاديث عَنْ رسول الله ﷺ في الأمر بالاجتماع والتَّحذير مِنَ الفرقة، وجاء الأمر به في أحاديث كثيرة بالنَّصِّ على هذا اللَّفظ «**الاجتماع**»، وجاء في أحاديث أخرى عديدة بالمعنى الَّذي يدل عليه والمقصد الَّذي يرمي إليه، وكذلك التَّحذير من الفُرقة ومِنْ كُلِّ أمرٍ يؤدِّي أو يفضي إليها.

وما أحوج النَّاس إلى الوقوف على كلامه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في هذا الباب حتَّى يعالَج ما في الصدور من شتات وميلٍ إلى الافتراق وأخذٍ بأسبابه؛ ولهذا مِنَ البحوث المقترحة في هذا الباب أن يُجمع أنواع دلالات السُنَّة على الاجتماع وذم الفُرقة في أحاديث النَّبيِّ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

كم يحتاج النَّاس إلى الوقوف على ذلك!! وهو باب كما قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ورد فيه في السُنَّة عجبٌ عجاب، فلو وقف عليها طالب العلم وجمعها وصنَّفها إلى أنواع بحيث يجتمع قدرٌ عظيم من هذه الأحاديث في موضع واحد، و الَّذي ورد عنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ في هذا الباب قدر كبير جداً كما أشار المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى ذلك.

ثُمَّ مع وضوح هذا الأمر في الكتاب والسُنَّة وكثرة الدَّلائل فيهما عليه يقول المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**ثم صار الأمر**» أي: عند الناس وفي واقعهم وفي حياتهم «**إلى أنَّ الافتراق في أصول الدِّين وفروعه هو العلم وهو الفقه في الدِّين، وصار الأمر بالاجتماع في الدِّين لا يقوله إلَّا زنديق أو مجنون**»: يعني انقلب الأمر رأسًا على عقب؛ أصبح لكثرة الشَّتَات وتفرق النَّاس الدَّاعي إلى الاجتماع مذموما، والدَّاعي إلى الافتراق محمودًا، صار واقع النَّاس في هذا الباب أنَّ الافتراق في أصول الدِّين وفروعه هو العلم وهو الفقه في الدِّين ! بل يُمدح، ولعلَّنا نسمع في حياتنا وواقعنا من يرفعون رايات يمجِّدونها ويعدُّونها هي صميم العلم وهي كبد الحقيقة فيقولون: (**حرِّية الاعتقاد**)، (**حرِّية الرأي**)، (**حرِّية الكلمة**)، كلمات مِنْ هذا القبيل تُطلق ونظائرها كثير؛ أيْ: أنَّ الكلَّ له رأيه الخاص به، وكل له عقل، وكل له عقيدة، ومعنى ذلك أنَّ هذا دعوة للتَّفرُّق وحمد له وثناء عليه، ولا يمكن أن يكون اجتماع إلَّا على

كلمة سواء، أمَّا إذا كان النَّاس كل له وجهة وكل له عقيدة وكل له مذهب فكيف يجتمعون إذا؟

قال أحد أهل العلم: «لو أخذنا مثالاً: رجلٌ يطوف بالبيت وهو يقول: اللَّهم ارضَ عن أبي بكر وعمر، وآخر يطوف بالبيت ويقول: اللَّهم الْعَن أبا بكر وعمر، أين هذا من هذا؟! لا يمكن أن يكون بينهما اجتماع».

ولا يمكن أنْ يقال: هنا حرِّية الكلمة أو حرِّية الرأي، هذا مثال وإلَّا قسْ عليه بقيَّة الأمور في الدين: شخص يقول: الإيمان يزيد وينقص، وآخر يقول: لا يزيد ولا ينقص، أو آخر يُثبت القدر ويؤمن به، وآخر ينفيه ويجحده، وهكذا؛ اختلاف في العقيدة واختلاف في العبادة، فهذه الأمور ما يمكن أن توجد ويبقى معها اجتماع.

ولهذا لا يكون إلاَّ على الدِّين، والتفرُّق لا يكون فيه الدِّين؛ قال أحد العلماء كلمة عظيمة في معنى قول النَّبِيِّ ﷺ: «**ولا تباغضوا**» قال: «وفي قوله ﷺ: «**ولا تباغضوا**» فيه إشارة إلى النهي عن البدع؛ لأنها سبب للفرقة والتباغض، فالَّذي يُحدث بدعة، أو يَنشر محدثا بين المسلمين، فإنَّه يكون بذلك فرَّق صفَّهم، وليس الَّذي يرد عليه وينقض باطله ويرد على بدعته، هو الَّذي فرَّق صفَّ المسلمين»(١).

فالبدعة تفرِّق والسُّنَّة تجمع، ولهذا يقال: أهل السُّنَّة والجماعة، وأهل البدعة والفرقة؛ فلا يمكن أنْ نغالط في حقائق الأمور ونطلب الاجتماع على البدعة؛ بل بعضهم قعَّد في هذا قاعدة عُدّتْ أصلاً في العلم لدى أقوام، وهي: (نجتمع على ما

---

(١) لشيخنا عبد الرَّزَّاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله رسالة نافعة في هذا الباب بعنوان: «منهج أهل السُّنَّة في توحيد الأمَّة».

اتفقنا عليه، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه)(١)، بحيث كلُّ أحد على عقيدة وكلٌّ واحد على رأي أو على مذهب ما، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه! وهذا في الحقيقة ضياع للدِّين، و دعوة لافتراق المسلمين وعدم اجتماعهم، وتقعيد لذلك.

فالمصنِّف رَحِمَهُ اللهُ يقول هنا:«**صار الأمر أن الافتراق في أصول الدين وفروعه هو العلم والفقه في الدِّين**»: أصبح الكلمات الَّتي تطلق ويُدعى فيها إلى الاجتماع على غير كلمة سواء، وإنَّما كلٌّ على فكره وكلٌّ على رأيه وكلٌّ على عقيدته ونحلته ومذهبه؛ أصبحتْ مثل هذه الدَّعوات هي الدَّعوة الصَّحيحة في أفهام كثير من الناس.

وفي مقابل ذلك «**صار الأمر بالاجتماع في الدين**» وَضَعْ إشارة عند قوله: «**في الدين**» «**وصار الأمر بالاجتماع في الدين لا يقوله إلاَّ زنديق أو مجنون**» فهناك شعارات تُرفع للدَّعوة إلى الاجتماع، لكن أين الشِّعار الَّذي يرفع للاجتماع في الدِّين؟! أي الدِّين الصَّحيح المتلقَّى مِنْ كتاب الله وسنَّة نبيِّه صلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) قال العلاَّمة عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللهُ في نقد هذه القاعدة:« يجب أنْ نتعاون فيما اتَّفقنا عليه من نصر الحقِّ والدَّعوة إليه والتَّحذير ممَّا نهى الله عنه ورسوله، أمَّا عذر بعضنا لبعض فيما اختلفنا فيه فليس على إطلاقه بل هو محلُّ تفصيل، فما كان من مسائل الاجتهاد الَّتي يخفى دليلها فالواجب عدم الإنكار فيها من بعضنا على بعض، أمَّا ما خالف النَّص منْ الكتاب والسُّنَّة فالواجب الإنكار على مَنْ خالف النَّص بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالَّتي هي أحسن عملا »«مجموع فتاويه» (٣/٥٨).

قال: **«وصار الأمر بالاجتماع في الدين لا يقوله إلا زنديق أو مجنون»** أي: عند هؤلاء أهل الافتراق، أصبح لا يدعو إلى الاجتماع في الدين إلَّا من هو عندهم زنديق أو مجنون، ومن يحذِّر من البدع الَّتي تفرِّق، ومَنْ يُحذِّر مِنَ الأهواء الَّتي تفرِّق يصفونه بصفاتٍ شنيعة وألقابٍ سَيِّئة، ويتَّهمونه في عقله وفكره، وفي قصده ونيته، ويقعون في عرضه، وهو لم يفعل إلَّا أنْ دعا إلى السُنَّة وحذَّر مِنْ نقيضها وضدِّها وهي البدعة والإحداث في دين الله.

وهنا ينبِّه المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى أنَّ الدَّعوة للاجتماع ليست دعوة لاجتماع كيف ما اتَّفق وكيف ما كان، وإنَّما هي دعوة للاجتماع على دين الله وعلى كتابه وعلى سُنَّة رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

وربُّ العالمين أمر العباد بالاجتماع والاعتصام فقال جل جلاله: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ [آل عمران:١٠٣]؛ حبله قيل: القرآن، قيل: السُنَّة، قيل: الإسلام، وهذا كلّه صحيح ،كلّها حبل الله عَزَّ وَجَلَّ؛ حبله ودينه الَّذي دلَّ عليه كتابه وسنَّة نبيِّه ﷺ(١).

(١) ولشيخنا عبد الرَّزَّاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله رسالة بعنوان: «حبل الله الممدود».

قال رَحِمَهُ اللَّهُ:

[الأصل الثالث :أنّ من تمام الاجتماع السّمع والطاعة لمن تأمَّر علينا ولو كان عبداً حبشيا ، فبيّن النَّبِيُّ ﷺ هذا الأصل بياناً شائعاً كافيًا بوجوه من أنواع البيان شرعا وقدرا ، ثم صار هذا الأصل لا يعرف عند أكثر من يدعي العلم فكيف العمل به؟!].

الشَّرْحُ:

ثُمَّ ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ الأصل الثَّالث: **«أن من تمام الاجتماع السّمع والطّاعة لمن تأمَّر علينا ولو كان عبداً حبشياً، فبيَّن الله هذا بياناً شائعاً كافياً»**: شائعـًا :أي ذائعـًا منتشراً، وكافيـًا: أي فيه الكفاية والغنية.

«بوجوه من أنواع البيان شرعاً وقدراً» شرعـًا: أي فيما جاء مِنَ الدَّلائل على ذلك في الكتاب والسُّنَّة .

والأدلَّة في القرآن والسُّنَّة في السَّمع والطَّاعة كثيرة، قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾ [النساء :٥٩].

وفي سنَّة النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أحاديث كثيرة جداً في السَّمع والطَّاعة تجِدُ أحاديث عديدة منها في كتاب الإمارة من «صَحِيح مُسْلِم»؛ فقد أورد رَحِمَهُ اللَّهُ أحاديث كثيرة جدًّا فيها الأمر بالسَّمع والطَّاعة لمن تأمَّر.

وأشار المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ هنا إلى حديث العِرْبَاض بنِ سارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ : وَعظَنا رسولُ الله ﷺ موعِظَةً، وَجِلَتْ مِنْها القُلوبُ، وذَرَفَتْ منها العُيونُ، فَقُلْنا : يَا رَسول الله، كَأَنَّها موعِظَةُ مُودِّعٍ، فأوْصِنا، قال: «**أوصيكُمْ بتقوى الله، والسَّمْعِ والطَّاعةِ، وإنْ**

تأمَّر عليكم عبدٌ، وإنَّه من يَعِشْ مِنْكُم بعدي فَسيرى اختلافاً كثيراً، فَعَلَيكُمْ بِسُنَّتِي وسُنَّةِ الخُلفاء الرَّاشدينَ المهديِّينَ، عَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ، وإيَّاكُم ومُحْدَثاتِ الأمور، فإنَّ كُلَّ بِدعَةٍ ضَلالةٌ»(١).

وجاء عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « **اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا، وَإِنِ اسْتُعْمِلَ حَبَشِيٌّ كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ**»(٢).

فإذا تأمَّر عليكم وصارت له الغلبة وتولَّى الأمر واستتبَّ له الأمر فالسَّمع والطَّاعة، والأحاديث في هذا الباب كثيرة منها :

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ: «**بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي الْمَنْشَطِ وَالْمَكْرَهِ**»(٣).

وجاءت أحاديث فيها الوعيد لمن نزع اليد مِنْ طاعة وأنَّه إذا مات على ذلك مات ميتة جاهلية، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « **مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ، فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً** »(٤).

فهذا الأمر بيِّن في الكتاب والسُّنَّة كما أشار المصنِّف بيانـًا شافيـًا كافيـًا بوجوه

---

(١) رواه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح التَّرغيب» (٣٧).

(٢) رواه البخاري (٦٩٣).

(٣) رواه البخاري (٧١٩٩)، ومسلم (١٧٠٩).

(٤) رواه البخاري (٧٠٥٣)، ومسلم (١٨٤٩).

مِنْ أنواع البيان[١].

بل إنَّ هذه الأصول الثَّلاثة[٢] الَّتِي ذكرها المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ هنا مترابطة: الإخلاص في العبادة، وأداء النَّاس عبادتهم مطمئنين بأمن وأمان وسلامة وطمأنينة، وهذا لا يتحقَّق لهم إلاَّ بالاجتماع، أمَّا إذا كانوا متفرِّقين متعادين متباغضين شغلتهم الفرقة عَن الدِّين وعن العبادة وعن الإخلاص، وصاروا متشتِّين في آرائهم وأفكارهم ووجهاتهم عن العبادة الَّتِي خُلقوا لأجلها.

والقيام بالعبادة يحتاج إلى اجتماع، ولابد فيه من ولي أمر (إمام)، ولا إمام إلا بسمع وطاعة، ولهذا إذا انفرط العِقد في هذه انفرط في جميعها: إذا نُزعت اليد من الطاعة ووجد تبعًا لذلك الفرقة، وإذا وجدت الفرقة ضاع الدِّين وضلَّ النَّاس.

وقد أشار المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «**ونهانا أن نكون كالذين تفرّقوا واختلفوا قبلنا فهلكوا**»: فالفُرقة هلاك وضياع للدِّين وتشتُّت للشَّمل، فكيف تتحقّق للنّاس

(١) قال شيخنا عبد الرَّزَّاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله: « فأقترح على طلبة العلم بحثين:

البحث الأول: وجوه أنواع البيان في الأمر بالاجتماع.

والآخر: وجوه أنواع البيان في السَّمع والطَّاعة لولاة الأمور.

وهذا الأمر مرتبط بالَّذِي قبله أو هذا الأصل مرتبط بالأصل الَّذي قبله؛ الأصل الأوّل: الاجتماع، والثاني: السمع والطاعة، وهذان أصلان مترابطان لا يتحقَّق الأوّل منها إلاَّ بالثَّاني؛ لأنَّه لا اجتماع إلاَّ بإمام، ولا إمام إلا بسمع وطاعة ».

(٢)-تنبيه: يقصد شيخنا عبد الرَّزَّاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله بالأصول الثَّلاثة هنا:

١/ إخلاص الدِّين لله تعالى وحده لا شريك له، وبيان ضدِّه الذي هو الشِّرك.

٢/ الأمر بالاجتماع في الدِّين والنَّهي عن التفرُّق.

٣/ من تمام الاجتماع السَّمع والطَّاعة للأمراء.

عبادة؟ وكيف يتحقَّق لهم طلب علم؟ وكيف تتحقّق لهم ممارسة مصالحهم العامة والخاصة إذا كانوا متفرقين متعادين متباغضين؟ وكيف تقام الحدود؟ وكيف يطمئنُّ النَّاس على الأموال والأعراض؟ فكلُّ هذه الأمور لا تتحقَّق إلاَّ بجماعة، والجماعة لا تتحقَّق إلَّا بإمام، والإمامة لا تكون إلا بسمع وطاعة؛ ولهذا كان مِنَ الأصول الَّتِي أكَّد عليها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: السَّمع والطاعة؛ بل إنَّه ﷺ ضَمَّ هذا الأصل في بعض أحاديثه إلى فرائض الإسلام كما قال في حجَّة الوداع ﷺ: «**اتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ، وَأَطِيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ، تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ**»[١]؛ فذكر الطَّاعة لذي الأمر مضمومةً إلى إقامة الصلاة، وإيتاء الزَّكاة، وصوم رمضان ، وجعل هذه كلَّها من موجبات دخول الجنَّة قال: «**تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ**»، فأكَّد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ على هذا الأمر.

وجاء عنه أيضـاً في حجَّة الوداع الجمع بين هذه الأصول الثَّلاثة الَّتِي أشار إليها المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ في حديث واحد:

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالْخَيْفِ مِنْ مِنًى فَقَالَ: « نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فَبَلَّغَهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ غَيْرُ فَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ، ثَلَاثٌ لَا يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَالنَّصِيحَةُ لِوُلَاةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ» [٢].

---

(١) رواه الترمذي (٦١٦)، وصحَّحه الألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة» (٨٦٧).

(٢) رواه الترمذي (٢٦٥٨)، وابن ماجه (٢٣١)، وقال الألباني (صحيح لغيره) في «صحيح التَّرغيب» (٤).

فجمع عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ بين هذه الأمور الثَّلاثة في حديث واحد، وأخبَرَ عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنَّ قلب المسلم لا يُغِلّ على هذه الأمور، لا يُغلّ: أي لا يوجد فيه غلّ وأنفة من هذه الأمور، بل يتقبَّلها بانشراح وقبول ولا يستنكف ولا يستكبر؛ بل يتقبَّلها بكلِّ اطمئنان: الإخلاص، ولزوم الجماعة، والسَّمع والطَّاعة، خلافًا ما كان عليه أهل الجاهليَّة(١).

والمصنِّف شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ لما صنَّف كتابه: «**مسائل الجاهليَّة الَّتي خالفها الإسلام**» بدأها بأضداد هذه الثَّلاثة، قال: المسالة الأولى: الشِّرك، والمسألة الثَّانية: التَّفرُّق، والمسألة الثَّالثة: عدم السَّمع والطَّاعة(٢).

والاستكبار عن السَّمع والطَّاعة من الجاهلية (شركٌ، وتفرُّق، وعدم سمع وطاعة)، والإسلام جاء بالتَّوحيد، وحثَّ على الاجتماع، وجاء بالسَّمع والطاعة، وهي أمور مترابطة كما سبق.

وقوله ﷺ: «**ثَلَاثٌ لاَ يُغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُؤْمِنٍ**» أي: من وُجد عنده هذه الأمور

---

(١) انظر: رسالة شيخنا عبد الرَّزَّاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله «خطب ومواعظ من حجَّة الوداع» (ص٦٢).

(٢) قال الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رسالته «مسائل الجاهلية الَّتي خالف فيها رسول الله أهل الجاهليَّة» (ص٣٦):

«المسألة الأولى: أنَّهم يتعبَّدون بإشراك الصَّالحين في دعاء الله وعبادته يريدون شفاعتهم عند الله ....

الثَّانية: أنَّهم متفرِّقون في دينهم ...

الثَّالثة: أنَّ مخالفة ولي الأمر وعدم الانقياد له فضيلة، والسَّمع والطَّاعة ذلٌّ ومهانة».

الثَّلاثة الإخلاص لله، ولزوم الجماعة، والنّصيحة لولاة الأمر انتفى من قلبه الغلّ، فليس له في قلبه مكان.

أمّا الإخلاص: فإنَّ قلبه متَّجه في أعماله كلِّها لطلب رضا الله، لا لمطمع دنيوي، ولا لشهرة يريدها، ولا لحظوظ تخصه يطمع بها، وإنَّما أعماله يقوم بها مبتغياً بها وجه الله سبحانه وتعالى، ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان].

فهو في معاملته للنَّاس ومجالسته ومحادثته لهم كل ذلك قائم عنده على الإخلاص والمراقبة لله تبارك وتعالى؛ فمن كان هذا شأنه فلا سبيل للغلّ إلى قلبه، بل هو معمور بالإخلاص للمعبود سبحانه وتعالى.

ثُمَّ ينضم إلى ذلك حرصه على الجماعة ونبذه للفرقة ورغبته في اجتماع الدين واجتماع أهله عليه، فمثل هذا الَّذي هو ملازِمٌ للجماعة حريص عليها، لأنّ قلبه متجه إلى اجتماع كلمة المسلمين ونبذ الفرقة، والغلّ ليس له سبيل على قلبه.

وإذا كان ناصحاً لولاة الأمر في قلبه بالدُّعاء وسؤال الله ﷻ صلاحهم وهدايتهم، وتقديمه للنَّصيحة لهم ما استطاع بالوسائل والطرق الشَّرعية، لا يكون في قلبه غِلٌّ؛ ولهذا هنا تجد الفرق بين العالم وبين صاحب الهوى، كما قال الإمام البربهاري رحمه الله: «**إذا رأيت الرجل يدعو للسُّلطان فاعلم أنّه صاحب سُنَّة، وإذا رأيته يدعو على السُّلطان فاعلم أنَّه صاحب بدعة**»(١).

وهنا يتبيَّن الفرق؛ صاحب السُنَّة يَهُمُّه اجتماع المسلمين، ويعرف أن اجتماعهم لا يكون إلَّا على إمام، ويعلم أنَّ صلاح الإمام صلاح للرعيَّة؛ ولهذا كان الفضيل

(١) «شرح السُنَّة» (١٠٧).

بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ يقول: «لو كان لي دعوة مستجابة ما جعلتها إلَّا للسلطان، قيل له: يا أبا علي فَسِّر لنا هذا؟ قال: إذا جعلتها في نفسي لم تعْدُني، وإذا جعلتها في السلطان صلح، فصلح بصلاحه العباد والبلاد، فأُمرنا أن ندعو لهم بالصلاح، ولم نؤمر أن ندعو عليهم، وإن جاروا وظلموا؛ لأنَّ جورهم وظلمهم على أنفسهم، وصلاحهم لأنفسهم وللمسلمين»(١).

فهذه درجة في الفقه عالية ما يصل إليها كُلُّ أحد؛ لأنَّه استوعب الأمَّة بالدَّعوة المستجابة، ولم يخصها لنفسه فقط؛ فهو يعلم إذا دعا للسلطان وأصلحه الله عَزَّوَجَلَّ فالرَّعيَّة تبع، «وإن طاب الملك طابت جنوده»، والنَّاس تبع لملوكهم في الغالب، وإلَّا قد يفسد الرَّئيس أو الوالي ويصلح عدد من الرَّعيَّة والعكس أيضًا، لكن الأصل أن النَّاس تبع لملوكهم في الغالب.

وتجد في المقابل من النَّاس من في قلبه غِلٌّ وتجارتْ به الأهواء فيطعن في الولاة ويسبُّهم، بل صحَّ في الحديث عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَا تَسُبُّوا أُمَرَاءَكُمْ»(٢)، فنهى عن ذلك؛ وإذا كان الإنسان له دعاء فليدعُ لهم بالصَّلاح والهداية والاستقامة؛ لأنَّ صلاحهم يعود على رعيتهم، وعلى مجتمعهم، بل وعلى المسلمين.

وهذا باب من الفقه ما يصل إليه من أهل الأهواء، ولا يصل إليه الإنسان إلَّا إذا أمَّر السُّنَّة على نفسه.

---

(١) «شرح السُّنَّة» (١٠٧)، «حلية الأولياء» (٨/٩١)، «سير أعلام النُّبلاء» (٨/٤٣٤).

(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٥٢٣)، وابن أبي عاصم في «السُّنَّة» ١٠٨٤٧)، وقال الألباني (إسناده جيِّد)، في «ظلال السنَّة »(١٠١٥).

فالشّاهد أنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ جمع بين هذه الأصول الثلاثة في حديث واحد قاله في مسجد الخيف بمنى، وهذا الحديث: «**ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم**» وأوله: «**نضرّ الله امرءًا سمع مقالتي**» حديث متواتر رواه عن النَّبِيِّ ﷺ أكثر من عشرين صحابيًا، ولعلَّ من أسباب تواتر الحديث أنَّه ألقي في مجمعٍ عام وفي خطبة عامة يسمعها الجميع، فهذا كلُّه من نصح النَّبِيِّ ﷺ لأمّته وبيانه لأمّته صلوات الله وسلامه عليه[1].

وقول المصنّف رَحِمَهُ اللَّهُ هنا: «**إنّ هذا بُيّن شرعاً وقدراً**»:

«**شرعاً**»: أي بما جاء في كتاب الله وسنَّة نبيِّه ﷺ مِنَ الأدلة على ذلك.

وبيانه «**قدراً**» أي: بما يُرى ويشاهد ويُعاين من الوقائع والأحداث المدمية المؤلمة بسبب التفرق، وأيضًا ما يشاهد ويعاين من الأحداث المفرحة بسبب الاجتماع، وكيف أنّه به تتحقّق الرَّحمة للنَّاس ، وبالفرقة يبوؤن بالعذاب ويصبحون نهبة للأعداء، وإذا تنازع أهلُ الإيمان وتفرَّقوا ذهبت هيبتهم وضعفت كلمتهم وتسلَّط عليهم عدوهم، فهذا أمر مبين قدراً، ومن ينظر في حال النَّاس، وفي واقعهم عبر التَّاريخ يرى أثر الاجتماع واضحًا ويرى أيضًا أثر الفرقة والاختلاف .

ثُمَّ يقول المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بعد بيانه لهذا الأمر: « **ثُمَّ صار هذا الأصل لا يعرف عند أكثر من يدعي العلم فكيف العمل به**»: هذا الأصل الَّذي هو السَّمع والطَّاعة

---

(١) ولشيخنا العلاَّمة عبد المحسن بن حمد العبَّاد البدر حفظه الله بحث قيّم حول هذا الحديث بعنوان: «دراسة حديث نضَّر الله امرءا سمع مقالتي..رواية ودراية» وهو ضمن «كتب ورسائل عبد المحسن بن حمد العبَّاد البدر »(٣/٢٩٧).

لا يُعرف عند أكثر أهل العلم -يعني فضلا عن العوام- «**فكيف العمل به**» أي: فكيف يعمل به ويحقِّق السَّمع والطَّاعة الَّتِي أُمر بها !! إذا دخلت الأهواء القلوب عميت عن السُنَّة، وأصبح يشتغل من هو معتنٍ بالعلم بالوقيعة في الولاة وإغارة الصُّدور عليهم، وملأ القلوب بالحقد وغير ذلك من المعاني الَّتِي ليست في القرآن ولا في الأحاديث ولكنَّه يدعو إليها، وترى في الأحاديث وأقوال الأئمة وبكثرة: أمر بالسَّمع والطاعة، أمر بالاجتماع، الحث على الدعاء للولاة، والنصيحة لهم، ولا يوجد حديث واحد فيه الأمر بسبِّهم، أو بغشِّهم، أو بإغارة الصُّدور عليهم، أو ملأ النُّفوس حقدًا عليهم.

فمن عمل بهذه الأمور -أعني الغش والغل والسب- هل رائده في هذه الأعمال السُنَّة؟ إن قال: نعم، فليأت بحرف واحد في السُنَّة يدل على ذلك، وإن كان قائده الهوى -وهو فعلا رائده- فهذا يهلك نفسه ويهلك غيره.

فالسُنَّة ليس فيها إلَّا الدعوة للاجتماع والمناصحة، حتَّى لو حصل من ولي الأمر فساد وجور وظلم ففي هذا المقام أكَّد النَّبِيُّ ﷺ أيضـًا على السَّمع والطَّاعة، بقوله ﷺ: «**تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلأَمِيرِ وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ**»[1].

وهذا فيه لفت انتباه إلى عموم النَّاس أنَّ ضياع حظِّ الإنسان ونصيبه الدُّنيوي ليس مخوَّلا لنزع اليد من الطاعة، وكم من أناسٍ نزعوا أو كان سبب نزع اليد من طاعة هو فوات حظّه الدنيوي[2]، لم يحصِّل كذا وكذا فيبدأ بسب الولاة ويطعن

---

(١) رواه مسلم (١٨٤٧).

(٢) قال العلاَّمة ابن عثيمين رَحِمَهُ اللهُ: «لو استأثر ولي الأمر بشيء مِنْ أموالٍ أو أراضٍ أو غيرها

فيهم ويوغر الصدور عليهم، وإذا فتشت عن سبب هجمته هذه لا تجدها نصرةً للدِّين وإنما نظرًا لحظِّ النَّفس، ولهذا لفت النَّبيُّ ﷺ الانتباه لهذا الأمر فقال: «تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلأَمِيرِ وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ فَاسْمَعْ وَأَطِعْ»[1].

وجاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «**اتَّقُوا اللَّهَ وَاصْبِرُوا حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ، أَوْ يُسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِرٍ، وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَجْمَعُ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ عَلَى ضَلاَلَةٍ**»[2]، وكثير من الناس عندما يدخل في هذه القضية يدخل لحظوظه الدنيويَّة؛ إمَّا كان يريد رئاسة فما حصلت له، أوزعامة لم تتحقَّق له، أو مالاً، أو غير ذلك: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ۝٥٨﴾ [التوبة].

لكن النَّاصح الَّذي ليس في قلبه غل همُّه دين الله عز وجل، حتَّى لو فات بعض حظه؛ لأنَّ اجتماع النَّاس وصلاح أمرهم أهم وأولى عنده بالعناية.

فعليك السَّمع والطَّاعة، حتَّى لو فرض لك من بيت المال أقل مِنْ كفايتك، وهو يأخذ مِنْ بيت المال ما شاء، فهذا استأثار بلا شك، فلا تقل: لماذا لا تعطيني مثل ما تأخذ؟ بل تقول: عليك السَّمع والطَّاعة ولو وجدة الأثرة عليك.

وهذا في الحقيقة هو الَّذي يضبط الأمَّة؛ لأنَّه لو بقيت الأمَّة هذا يقبل ويمتثل، وهذا لا يقبل ويعاند صارت الفوضى، وصار الشر والفساد.

فالواجب: السَّمع والطَّاعة على كل حال ما لم يأمروا بمعصية» «التَّعليق على صحيح مسلم» (٩/٢٥٥).

(١) رواه مسلم (١٨٤٧).

(٢) رواه ابن أبي شيبة في «مصنَّفه» (٣٧١٩٢)، وابن بطة في «الإبانة» (١٤٩).

أتى رجُلٌ من الخَوارج الحسنَ البصري، فقالَ لَهُ: ما تَقولُ في الخَوارج؟

قالَ: هُمْ أصْحَابُ دُنيا.

وقَالَ: ومن أينَ قُلتَ وأحدهُمْ يمْشي في الرُّمح حتى ينكَسرَ فيه، ويخرج من أهله وولَده؟

فَقَالَ الحسنُ: حدثني عن السلطان أيَمْنعُكَ من إقَامَة الصلاة، وإيتَاءِ الزَّكَاة، والحجِّ والعُمْرة؟

قَالَ لاَ.

قَالَ: فأرَاهُ إنما مَنعَكَ الدنُّيا فقاتلت.

قال الإمام الشّوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «اجتمعت في أيام الطَّلب بجماعة من أهل العلم، فسمعتُ مِنْ بعض أهل العلم الحاضرين ثلبًا شديدًا لوزير مِنَ الوزراء، فقلت للمتكلِّم: أنشدك الله يا فلان أَنْ تجيبني عمَّا أسألكَ عنه وتصدقني، قال: نعم، قلت له: هذا الثَّلب الَّذي جرى منك، هل هو لوازع ديني تجده من نفسك لكون هذا الَّذي ثلبه ارتكب منكرا، أو افترى مظلمة أو مظالم؟ أم أنَّ ذلك لكونه في دنيا حسنة وعيشة رافهة؟ ففكَّر قليلا ثُمَّ قال: ليس ذلك إلَّا لكون الفاعل ابن الفاعل يلبس النَّاعم من الثِّياب ويركب الفاره من الدَّواب، ثُمَّ عدَّد من ذلك أشياء، فضحك الحاضرون، وقلتُ له: أنت إذا ظالم له، تخاطب بهذه المظلمة بين يدي الله، وتحشر مع الظَّلمة في الأعراض، وذلك أشدُّ مِنَ الظُّلم في الأموال عند كلِّ ذي نفس»[1].

---

(١) «التَّعليق على رسالة رفع الأساطين في حكم الاتِّصال بالسَّلاطين» (ص٤٠).

فهذه الأمور ما تصلح إلا بالسنة، ولابد فيها من قراءة أحاديث النَّبِيِّ ﷺ بتجردٍ من الأهواء.

وكثير من الناس بسبب غلبة الأهواء عليهم يستوحش من قراءة الأحاديث الَّتِي فيها الأمر بالسَّمع والطاعة، يقرأ بلا استيحاش الأحاديث الَّتِي في الصلاة، ويقرأ بلا استيحاش الأحاديث الَّتِي في الزكاة، وإذا جاء إلى مثل كتاب الإمارة من «صحيح مسلم» ـ مثلا ـ استوحش من هذه الأحاديث! فالَّذي أمر بالصَّلاة والصِّيام هو الَّذي أمر بالسَّمع والطَّاعة، ومصلحة المسلمين في هذا كلِّه.

فهذا باب عظيم وأصل مهم؛ لكن عندما تغلب على النَّاس الأهواء يضيِّعونه، ويكون تضييعهم له ليس مبنيًّا على قواعد شرعية، وإنَّما مبني على أهواء تتجارى بالنَّاس وتذهب بهم المذاهب.

وفي هذا الباب تجد من يسلك هذا المسلك -مسلك الفرقة والوقيعة في الولاة- يوصف بين عوام المسلمين بالَّذي لا تأخذه في الله لومة لائم!، ويقول كلمة الحق ولا يبالي!، وغيرها مِنَ الألقاب الَّتِي تطلق في غير محلِّها حتَّى يُنفخ في النَّاس، وحقيقة أمره أنَّه يشقُّ صفَّ المسلمين ويفرِّق كلمتهم ولا يتحقَّق على يديه خيراً؛ لأنَّ الخير والرَّحمة بالاجتماع، وبإصلاح الأمور، وبالنَّصيحة والدُّعاء والتَّعاون، وباللِّين، وليس بإيغار الصدور، وتفريق الكلمة، وتشتيت الشَّمل(١).

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولهذا كان المشهور مِنْ مذهب أهل السُّنَّة أنَّهم لا يرون الخروج على الأئمَّة وقتالهم بالسَّيف وإن كان فيهم ظلم كما دلَّت على ذلك الأحاديث الصَّحيحة المستفيضة عنْ النَّبِيِّ ﷺ؛ لأنَّ الفساد في القتال والفتنة أعظم مِنَ الفساد الحاصل بظلمهم بدون قتال ولا فتنة، فلا يدفع أعظم الفسادين بالتزام أدناهما، **ولعلَّه لا يكاد يُعرف**

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[الأصل الرابع: بيان العلم والعلماء والفقه والفقهاء وبيان من تشبه بهم وليس منهم ,وقد بيَّن الله تعالى هذا الأصل في أول (سُورَةُ البَقَرَةِ) من قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة:٤٠] إلى قوله قبل ذكر إبراهيم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ :﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[البقرة:١٢٢] الآية، ويزيده وضوحاً ما صرحت به السنة في هذا من الكلام الكثير البين الواضح للعامي البليد، ثُمَّ صار هذا أغرب الأشياء، وصار العلم والفقه هو البدع والضلالات، وخيار ما عندهم لبس الحق بالباطل، وصار العلم الَّذي فرضه الله تعالى على الخلق ومدحه لا يتفوه به إلا زنديق أو مجنون، وصار من أنكره وعاداه وصنَّف في التحذير منه والنهي عنه هو الفقيه العالم].

الشَّرْحُ:

قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**الأصل الرابع: بيان العلم والعلماء، والفقه والفقهاء، وبيان من تشبه بهم وليس منهم**»: هذا الأصل عقده المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وأورده هنا لأنَّه أصل الْتبَس على كثير منَ النَّاس واختلط عليهم دعاة الخير مِنْ دعاة الشر، وأصبحوا يأخذون عن كلِّ متكلِّم، ولا يميِّزون بين أهل الحق والباطل؛ بل ليس عندهم آلة يميزون بها بينهما.

و قد أرشد رب العالمين سبحانه وتعالى في كتابه السائلين والمستفتين

طائفة خرجت على ذي سلطان إلَّا وكان في خروجها مِنَ الفساد ما هو أعظم مِنَ الفساد الَّذي أزالته» «منهاج السُّنَّة النَّبويَّة» (٣/ ٢٣١).

والمتعلمين إلى الأخذ عن أهل الذِّكر فقال سبحانه: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ۝٤٣﴾ [النحل].

فلا يكون الأخذ عن كلِّ أحد؛ وإنَّما عن أهل الذِّكر، وهم أهل العلم والفقه بدين الله تبارك وتعالى.

وعندما يختلط هذا الأمر على الناس يصبح أخذهم عن كلِّ أحد وتلقِّيهم عن كل متحدِّث، وهذا من أعظم أسباب الانحراف عن دين الله تبارك وتعالى، وقد صحَّ في الحديث عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ**»(١).

وأئمة الضَّلال هم من يلبسون لبوس العلم ويتزينون بزي العلماء ولكنهم ينشرون البدع في الأمَّة والخرافات والأهواء والضَّلالات وما لا أصل له في دين الله، ويلبسون الحقَّ بالباطل، ويكتمونه ويحجبون النَّاس عنه؛ فتنتشر على أيديهم البدع والخرافات، ولا يزال أتباعهم يحسِّنون بهم الظنَّ، ويظنُّون أنَّهم يبيِّنون دين الله ﷻ، وتراه يؤيِّد باطله إمَّا بحديثٍ مكذوب، أو بآية يحرِّفها عن معناها، أو قصَّة يخترعها، أو رؤية منامية يدَّعيها، أو تجربة يزعمها، أو نحو ذلك مِنَ المسالك المتَّبعة عند هؤلاء في نشر ما عندهم من خرافة وباطل.

ولضعف البصيرة في النَّاس والفهم والدِّراية يروِّج عليهم كلام أمثال هؤلاء.

ولهذا عقد المصنِّف رحمه الله هذا الأصل نصحًا للنَّاس، وبيانًا لهذا الأمر؛ أن يُعرف الفقه والفقهاء والعلم والعلماء.

---

(١) رواه أبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢٢٢٩)، وصحَّحه الألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة» (١٥٨٢).

والعلم والفقه أيّ النَّافع؛ الَّذي أمر الله ﷻ به، فليس كل كلام يُلقى أو بيان يبيِّن هو فقه، وإنَّما مدح الله ﷻ أهله ورغَّب النَّبيُّ ﷺ في تحصيله وتلقيه هو العلم الشَّرعي المستمد مِنْ كتاب الله ﷻ وسنة نبيه ﷺ.

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

العلم قال الله قال رسولــــــه * قال الصحابة هم أولو العرفان**

ما العلم نصبك للخلاف سفاهة * بين الرَّســول وبين رأي فلان**

هذا هو العلم على ضوء فهم الصَّحابة الكرام ومن اتَّبعهم بإحسان؛ وهذا هو الَّذي امتدحه الله وهذا هو ميراث الأنبياء، كما قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: « **مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»(١).

وهذا هو العلم الَّذي شهد عليه النَّبيُّ ﷺ لصاحبه بالخيريَّة في أحاديث كثيرة:

كقوله ﷺ: «**مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ**»(٢).

---

(١) رواه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وقال الألباني: (حسن لغيره) في «صحيح التَّرغيب» (٧٠).

(٢) رواه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

وقوله ﷺ: «خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ»[١].

فكلُّ الأحاديث الَّتِي وردتْ في التَّرغيب في العلم والحثِّ عليه فالمراد بها العلم الشَّرعي، والمراد بالفقه الَّذي يُستمد من كتاب الله ﷻ وَمِنْ سُنَّة النَّبِيِّ ﷺ على ضوء فهم السلف الصَّالح رحمهم الله.

وهذا الفقه قد يقصد به (الفقه الأكبر) الَّذي هو العقيدة وأصول الدِّين، أو (الفقه الأصغر) الَّذي هو الأحكام والفروع، فهذه كلُّها فقه في دين الله تبارك وتعالى[٢].

وعندما لا تميَّز هذه الحقيقة وتُخلط الأمور في هذا الباب وتسمَّى علماً فتُضرُّ بالنَّاس غاية الضَّرر، ومن أعظم ذلك خطراً عليهم وأدهاه عليهم علم الكلام الَّذي بنى عليه أربابه فهم دين الله ﷻ بمعزل عن كتاب الله وسنَّة نبيِّه ﷺ، وصار الواحد منهم في تقريره لأمور دينه وأمور الاعتقاد يذكر عقليات وتصورات وفلسفات ما أنزل الله بها من سلطان، فإذا أراد أنْ يقرر عقيدة قال: (بما أنه كذا يكون كذا) ، (ولو كان كذا لكان كذا) ؛ فيمضي بهذا الأسلوب في تقرير الاعتقاد وبين يديه كتاب الله ناطق بالحق وبين يديه سنة رسول الله ﷺ شاهدة بالحقّ ودالة عليه فيُعرض عنهما، ثُمَّ يقحم عقله القاصر وتصوراته الضعيفة! فيقرر في الاعتقاد ما لا أساس له ولا أصل عليه، خوضا في أسماء الله وصفاته، وفي دين الله وفي شرعه بلا علم؛ وهذا من أعظم المحرمات وأكبر الآثام: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف]، ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا

---

(١) رواه البخاري(٥٠٢٧).

(٢) انظر: «قطف الجنى الدّاني» (ص٥٥)، للعلاَّمة عبد المحسن بن حمد العبَّاد البدر حفظه الله .

﴿٣٦﴾ [الإسراء].

وبات علم التوحيد الَّذي هو أعظم العلوم وأجلها يسمى ـ بسبب تعلق هؤلاء بعلم الكلام ـ يسمى «علم الكلام»! يسمى علم التوحيد عندهم أو علم العقيدة بهذا، ويبدأ هؤلاء في تقرير الاعتقاد على الكلام الباطل والخوض في دين الله عَزَّوَجَلَّ بالعقليات والآراء، وقد قال الإمام ابن أبي العزّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «**فَكَيْفَ يُرَامُ الْوُصُولُ إِلَى عِلْمِ الْأُصُولِ، بِغَيْرِ اتِّبَاعِ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ؟ !**»(١) أي: لا يمكن للإنسان أَنْ يصل إلى الأصول الصَّحيحة والعقيدة السَّليمة دون أنْ يتلقَّى ذلك عنْ رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، ولا يمكن أيْضـًا أنْ يعرف العبادة الصَّحيحة إلَّا بالتلقِّي عن الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ولهذا فكلُّ طريق إلى الله سبحانه وتعالى مسدود؛ إلَّا عنْ طريق الرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، ولا يمكن للإنسان أنْ يصل إلى الهدى والحقّ، وإلى العلم النَّافع السَّديد أوالقول والعمل الصَّالح إلَّا بالاتِّباع للرَّسول ﷺ، وجعله أسوة وقدوة في عقيدته وعبادته وعمله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب].

ومن فارق ما جاء به ﷺ ضلّ ولا شك، ولهذا كان شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ كثيراً ما يقول: «**من فارق الدَّليل ضلَّ السَّبيل، ولا دليل إلاّ ما جاء به الرَّسول ﷺ**»(٢).

---

(١) «شرح للعقيدة الطَّحاوية» (ص٢٥).

(٢) نقله عنه الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في « مفتاح دار السَّعادة » (١/ ٨٣).

فكلُّ أحدٍ يُستدلُّ لقوله لا به إلَّا الله ورسوله ﷺ، لأنَّ كلام الله وكلام رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو الحُجَّة، وكلام غيرهما ليس بحجَّة، وإنَّما تُطلب له إنْ وجدت في الكتاب أو السُنَّة ، فإن وجدت وإلاَّ ردَّ عليه قوله، وهذا معنى قول الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: « **إنَّما أنا بشر أخطئ وأصيب فانظروا في قولي؛ فكلُّ ما وافق الكتاب والسُنَّة فخذوا به، وما لم يوافق الكتاب والسُنَّة فاتركوه**»[١].

وكما يشير المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ هنا؛ المصيبة عظمت على النَّاس في هذا الباب لأنَّهم أصبحوا لا يميِّزون بين دعاة الحقِّ وأدعياء الباطل؛ بل أصبح بعض العوام يميل في تلقِّيه وفي استفتائه إلى من يراه يفتيه بما يريد أو من يراه يفتيه على هواه، وتجده يتنقَّل بين من يفتون واحداً تلو الآخر إلى أنْ يقع على شخص يرَخِّص له فيما يريد، ليس منشوده الحقّ ومطلوبه دين الله عَزَّوَجَلَّ، وإنَّما مبتغاه الأمر الَّذي اتَّجه للسُّؤال عنه أو طلب الرُّخصة فيه، وهذه من المصائب العظيمة، فأصبح في النَّاس مَنْ لا يميِّز بين الفقه والفقهاء والعلم والعلماء، وأصبح الدَّاعية للبدعة الَّذي لا يُسمع منه تقرير الاعتقاد الصَّحيح والدِّين القويم على ضوء الدَّليل المستمَدِّ مِنْ كتاب الله وسُنَّة رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُعد عند بعض النَّاس عالماً وفقيهاً، وأصبح أيضاً عكس ذلك؛ العالم المنضبط بضوابط الكتاب والسنة المتقيِّد بما جاء في كتاب الله وسنَّة نبيِّه ﷺ يُرمى بأوصاف ينفِّر بها النَّاس عنه، والأوصاف الَّتِي يرمون بها العلماء الَّذين هم على السنَّة وعلى التَّلقِّي مِنْ كتاب الله عَزَّوَجَلَّ كثيرة جداً في القديم والحديث.

---

(١) ذكره الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ في «إعلام الموقِّعين» (١/ ٧٥).

قال: «**بيان العلم والعلماء، والفقه والفقهاء، وبيان من تشبّه بهم وليس منهم**»: يشير هنا إلى أن في النَّاس من يتشبَّه بأهل العلم ويتظاهر به وهو في الواقع يدسُّ البدع وينشر الباطل والخرافة بينهم.

فلا ينشر دين الله ﷻ، وإنَّما هي الخرافات الباطلة والبدع الضالة؛ فهذه بضاعته؛ لكنَّه يتظاهر بمظهر العلم والفقه والبصيرة في دين الله فيغر العوام ويخدع الجهال.

قال: «**وقد بيّن الله تعالى هذا الأصل في أول (سُورَةُ البَقَرَةِ) من قوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ [البقرة:٤٠] إلى قوله قبل ذكر إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[البقرة:١٢٢] الآية**».

يشير رحمه الله إلى أنَّ في هذا السِّياق بيانًا لهذه الحقيقة، وإيضاحًا إلى أنَّ العالم الحق شأنه ذكر نعمة الله عليه وفضله عليه وشكره لها تبارك وتعالى، وعدم لبسه الحقّ بالباطل، وعدم كتمانه للحق، ومحافظته على ما أُمر مِنْ إقامة الصَّلاة وإيتاء الزَّكاة، والبعد عن أن يكون شأنه شأن من يدعو إلى الشيء ولايعمله، قال تعالى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٤٤﴾ [البقرة].

فهذا السياق المبارك عندما يتأمّله المسلم وطالب العلم يجد فيه ضوابط يميِّز بها بين العلماء والأدعياء، فالعلماء لهم صفاتهم، والأدعياء لهم نعوتهم، وكلّها مبينة في هذا السياق وفي مواضع أيضًا أخرى من كتاب الله ﷻ تكشف هذا الأمر وتجلّي هذه الحقيقة.

قال: «**ويزيده وضوحاً**» أي: يزيد هذا الأمر وضوحًا وبيانًا «**ما صرّحتْ به**

السُنَّة في هذا الكلام الكثير البيِّن الواضح للعامي البليد» أي: أنَّ السُنَّة جاءت ببيان العلماء وصفات أهل العلم، ولو وقف طالب العلم على بعض الكتب المصنَّفة في هذا الباب -وبخاصة كتاب: «جامع بيان العلم وفضله» للامام ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ لوجد فيه من السنَّة ذكر فضل العلم وعلامات أهله وصفاتهم في ضوء سنة النَّبِيِّ الكريم عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ، فهو أمر بيِّن في الوحي غاية البيان؛ بل كما قال المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيانًا واضحًا حتَّى للعامي البليد، ذُكر في القرآن والسُنَّة نصوص توضِّح مَنْ هم العلماء وما هي صفاتهم وغير ذلك؛ لكن المعرض والمتبع لهواه ونحو هؤلاء تختلط عليهم الأمور وتلتبس إمَّا بسبب الجهل أو بسبب اتِّباع الأهواء.

قال: « **ثُمَّ صار هذا أغرب الأشياء»** يعني: معرفة العلماء وعلاماتهم، والفقهاء وصفاتهم، صار هذا أغرب الأشياء، لا يكاد يعرفه إلَّا القليل منهم، والأمر الغريب: الَّذي لا يعرفه إلَّا القلَّة من النَّاس.

«**وصار العلم والفقه هو البدع والضلالات**» أي: العلم الصَّحيح المستمد من الكتاب والسنة هو البدع والضلالات، وأصبح كثير النَّاس ينكرون السُّنن ويسمُّونها بالبدعة، وينكرون العقيدة الصَّحيحة ويصفونها بالضّلال، وينكرون العبادات الثَّابتة عن الرَّسول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ويصفونها بالباطل؛ هذا معنى قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ «وصار العلم والفقه هو البدع والضلالات»: أي أنّ هؤلاء أصبحوا يصفون العلم الصحيح والفقه السَّليم بأنَّه بدعة وضلالة، وأمَّا العلم عندهم هي البدع الَّتِي يمارسونها، الَّتِي ما أنزل الله تبارك وتعالى بها من سلطان.

«**وخيار ما عندهم**»: يعني أفضل شيء عند هؤلاء «لبس الحق بالباطل»: وهذا

أمر لا خير فيه، فأيُّ خيرية في أن يلبس الحق بالباطل، وتُخلط على النَّاس المفاهيم الصَّحيحة، وتغيَّب عنهم الحقيقة النَّاصعة المأخوذة من الكتاب والسُّنَّة؟!

فإذا كان هذا خيار ما عندهم فمعنى ذلك أنَّ هؤلاء في ضياع تام وإعراضٍ عن كتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنَّة رسوله صلوات الله وسلامه عليه.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «**وصار العلم الذي فرضه الله تعالى على الخلق ومدحه لا يتفوه به إلا زنديقٌ أو مجنون**» ؛ قوله رَحِمَهُ اللَّهُ: «**لا يتفوه به إلا زنديق أو مجنون**» أي بزعم هؤلاء؛ فيصفون الَّذي يتفوَّه بالعلم الشَّرعي المستمدِّ من الوحي بالجنون، وربَّما وصفوه بالزَّندقة الَّتِي هي: المروق عن دين الله تبارك وتعالى، وأسوتهم في ذلك المشركون الَّذين وصفوا النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بالسَّاحر والكاهن والمجنون والمفتري إلى غير ذلك من الأوصاف الَّتِي لقبوه بها، ولُقِّب بنظائرها أتباعه المتمسكين بهديه السائرين على نهجه صلوات الله وسلامه عليه.

قال: «**وصار من أنكره وعاداه وصنّف في التحذير منه والنّهي عنه هو الفقيه العالم**»، قوله: «**وصار من أنكره وعاداه**» الضَّمير هنا يعود إلى العلم والفقه الصَّحيح المستمدِّ من الكتاب والسنَّة، فصار من أنكر العلم والفقه الصَّحيح، وصنَّف في التَّحذير منه والنَّهي عنه هو الفقيه العالم !! وهذا موجود في عصرنا، تُصنَّف كتب في ردِّ السُّنن والإشادة بالبدع وإحياء الضَّلالات ويوصف أصحابها بالعلماء ويلقَّبون بالفقهاء، ورُبَّما قيل في حقِّه إمام! أو إمام الأئمة من قِبل أتباعه من الغوغاء والجهَّال؛ وهو ليس عنده إلَّا نشر الخرافة، كالتَّعلُّق بالقبور والكذب على رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أو نشر الأحاديث الواهية الضعيفة، أو تحريف

الآيات عن معانيها، أو حكاية القصص وذكر الرؤى والمنامات، ويكون الكتاب كلُّه مبنيًا على هذا الأمر ولا ترى فيه مثلًا حديث النَّبِيِّ ﷺ: «**لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»[1]، وغيره مِنَ الأحاديث الصَّحيحة في هذا الموضوع، وإنَّما تجد فيه إمَّا آيةً يحرفونها عن معناها ويصرفونها عن مدلولها.

وقد يستشهد هؤلاء وغالب من كتب منهم في هذا الباب بقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف].

والجواب عنهم: أن هذا أمر ذكره الله ﷻ عن أهل الغلبة، والظاهر من سياق الآية أنَّهم كفار، فيستدلون به لفعل هؤلاء، ويتركون ما قاله النَّبِيُّ ﷺ قبل أنْ يموت: «لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ».

ولا يصح أنْ نقول هذا شرع مَنْ قبلنا لأنَّه لو كان كذلك: أيصحُّ أنْ يقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «**لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»؟

أيلعنهم على أمر هو مشروع عندهم؟ هذا لا يقال؛ بل اتِّخاذ القبور مساجد هو باطل في أديان جميع الأنبياء والمرسلين، والآية ذكرٌ لحال أهل الغلبة من غير المسلمين: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾ [الكهف].

(١) رواه البخاري (٤٣٥)، ومسلم (٥٢٩).

فالسّياق واضح ووصف لحالهم[1]، فيستدلون بعمل أهل الغلبة في مساق ليس مساق مدح؛ بل في سياق ذم ويتركون أحاديث رسول الله ﷺ!!

والعامي المسكين إذا قالوا له: يقول الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوٓاْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ

(١) قال العلاَّمة محمد ناصر الدِّين الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ردِّه على هذه الشبهة:

« فالجواب عنها مِنْ ثلاثة وجوه :

الأوَّل: أنَّ الصَّحيح المتقرّر في علم الأصول أنَّ شريعة من قبلنا ليست شريعة لنا لأدلة كثيرة منها قوله ﷺ: « أُعطيت خمسًا لم يعطهن أحدا مِنَ الأنبياء قبلي . . . (فذكرها وآخرها) وكان النَّبيُّ يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى النَّاس كافَّة».

فإذا تبيَّن هذا فلسنا ملزمين بالأخذ بما في الآية لو كانت تدلُّ على أنَّ جواز بناء المسجد على القبر كان شريعة لمن قبلنا .

الثَّاني: هب أنَّ الصواب قول من قال: « شريعة مِنْ قبلنا شريعة لنا » فذلك مشروط عندهم بما إذا لم يرد في شرعنا ما يخالفه، وهذا الشرط معدوم هنا؛ لأنَّ الأحاديث تواترت في النَّهي عن البناء المذكور كما سبق فذلك دليل على أنَّ ما في الآية ليس شريعة لنا.

الثالث: لا نسلِّم أنَّ الآية تفيدُ أنَّ ذلك كان شريعة لمن قبلنا؛ غاية ما فيها أنَّ جماعة مِنَ النَّاس قالوا : ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴾ فليس فيها التَّصريح بأنَّهم كانوا مؤمنين، وعلى التَّسليم فليس فيها أنَّهم كانوا مؤمنين صالحين متمسكين بشريعة نبي مرسل؛ بل الظَّاهر خلاف ذلك؛ قال الحافظ ابن رجب في « فتح الباري في شرح البخاري »(٦٥ / ٢٨٠) مِنَ «الكواكب الدراري » «حديث لعن الله اليهود اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد »: وقد دلَّ القرآن على مثل ما دلَّ عليه هذا الحديث وهو قول الله ﷻ في قصَّة أصحاب الكهف : ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴾، فجعل اتِّخاذ القبور على المساجد من فعل أهل الغلبة على الأمور **وذلك يشعر بأنَّ مستنده القهر والغلبة واتِّباع الهوى، وأنَّه ليس من فعل أهل العلم والفضل المنتصر لما أنزل الله على رسله من الهدى...**» « تحذير السَّاجد من اتِّخاذ القبور مساجد» (ص٥٥).

لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا ﴿٢١﴾، هذا القرآن ناطق باتِّخاذ القبور مساجد، فكيف يقول هؤلاء: لا يجوز؟! وهذه آية من (سُورَةُ الكَهۡفِ)، ثُمَّ يردفون هذه الآية الَّتِي حرفوا معناها بأحاديث المكذوبة باطلة يوردونها ـ مثلاً ـ : «من اعتقد في حجر نفعه»!!، أو أشياء من هذا القبيل، ثُمَّ بعد ذلك يردفونها بقصص واهية، ثُمَّ قد تُجمع هذه الشُّبه في كتاب ويُعدُّ علماً، ويُعدُّ مؤلفه عالما فقيها، وكلُّه كذب على الله وعلى رسوله ﷺ، وقولٌ على الله بلا علم، وتلفيقٌ وتزويرٌ وكتم للحقِّ ولبسه بالباطل، وخلط للأمور، والَّذين يكتوون من جمرة هؤلاء من علماء السُّوء إنَّما هم العوام الجهّال، فيغترون ويقعون في أنواع مِنَ الباطل، والله المستعان.

فهذا مثال واحد، وقلْ في جميع أبواب الدِّين مثل هذا، فعندما يتصدَّر للنَّاس دعاة للباطل والضّلال فسيفسدون في الناس بمثل هذه الطريقة.

فالمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وضع هذا الأصل نصحاً للنَّاس حتَّى لا يختلط الأمر على عوام المسلمين وعلى المبتدئين وعلى طلبة العلم، ويعرفون الحقيقة كما هي.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

[الأصل الخامس: بيان الله سبحانه للأولياء وتفريقه بينهم وبين المتشبهين بهم من أعداء الله المنافقين والفجار، ويكفي في هذا آية (آل عمران) وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾، وآية في (سورة المائدة)، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ الآية، وآية في (سورة يونس) وهي قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾، ثُمَّ صار الأمر عند أكثر من يدعي العلم وأنه من هداة الخلق وحفاظ الشرع إلى أن الأولياء لابد فيهم من ترك اتباع الرسل، ومن اتبعه فليس منهم، ولابد من ترك الجهاد، فمن جاهد فليس منهم، ولابد من ترك الإيمان والتقوى، فمن تعهد بالإيمان والتقوى فليس منهم، يا ربنا نسألك العفو والعافية إنّك سميع الدّعاء].

الشَّرْحُ:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «**الأصل الخامس**»: وهذا أصل عظيم ومفيد جدّاً للمسلم، والنَّاس بحاجة ماسَّة للعلم به ولفهمه.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ: «**بيان الله سبحانه لأولياء الله وتفريقه بينهم وبين المتشبّهين بهم من أعداء الله المنافقين والفجّار**» هذا أصل مهم يجب على المسلم أن يفهمه في ضوء كتاب الله وسنة نبيه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، ولعلّنا نلحظ الطريقة المباركة والنَّهج

السَّديد الَّذي عليه هذا الإمام في توضيحه للأمور، فلمَّا أراد أنْ يذكر علامة العلماء وأمارة الفقهاء أورد آيات وأشار إلى أحاديث تُعرف بها ومن خلالها علاماتهم، ولما أراد أنْ يبيِّن علامات أولياء الله سبحانه وتعالى أيضًا أورد آيات منْ كتاب الله ﷻ تعرف من خلالها علاماتهم؛ منبِّهًا بذلك أنَّ الحق وأهله ودعاته إنَّما يُعرفون منْ جهة دلالة كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ.

قال: «**بيان الله سبحانه لأولياء الله، وتفريقه بينهم وبين المتشبّهين بهم من أعداء الله المنافقين والفجّار**»؛ فأولياء الله لهم علامات ذُكرتْ في القرآن والسنَّة، وأولياء الشيطان الَّذين يدَّعون أنَّهم أولياء الله أيضًا لهم علامات ذكرت فيهما الكتاب، وقد صنَّف شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ مصنفًا عظيم النفع كبير الفائدة سماه «الفرقان بين أولياء الرَّحمن وأولياء الشَّيطان»، وهو كتاب عظيم جداً ذكر فيه ما يُميَّز به بين ولي الله، وولي الشَّيطان، ومَنْ لم يميِّز خدعه أولياء الشَّيطان وغرَّوه وصرفوه عنْ دين الله تبارك وتعالى.

قال: «**ويكفي في هذا آية** (آل عمران) **وهي قوله تعالى:** ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ ، **وآية في** (سورة المائدة)، **وهي قوله تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ **الآية، وآية في** (سورة يونس) **وهي قوله تعالى:** ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾».

فيكفي أنْ تعرف الأولياء حقّاً وصدقاً من خلال هذه الآيات الثَّلاث فقط؛ ففيها كفاية لك في معرفة منْ هو الولي، وما هي علاماته.

فالعلامة الأولى: في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾ [آل عمران].

أي: اتباع النَّبيِّ ﷺ، ولقد كان بعض أهل العلم يسمُّون هذه الآية «آية المحنة»؛ أي أنَّ من أراد أن يمتحن نفسه في صدق وقوَّة محبَّته لرسول الله ﷺ وقبل ذلك محبَّته لربّ العالمين؛ فلينظرْ أو ليقِسْ ذلك على ضوء الاتِّباع الَّذي عنده، فإنَّه كلَّما كان أعظم اتِّباعًا وتمسُّكًا بهدي الرَّسول ﷺ فإنَّ هذه أمارة على صدق المحبَّة، وكلَّما ضعُف فيه الاتباع فهذا أمارة على ضعفها، فكيف يكون وليًّا وهو لا يتَّبع الرَّسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ؟!(1).

وقد تجد في بعض البلدان مَنْ يزعم ويدَّعي أنَّه ولي، ويجلس متَّكئًا على سارية في المسجد أو يكون في الشَّارع جالسًا وتقام الصَّلاة ويصلِّي النَّاس وهو لا يصلِّي معهم! فأين الصلاة الَّتِي فرضها الله على عباده؟

يقول أحد الأشخاص: «مررتُ ببلدٍ وفي مكان ما وإذا برجل كلَّما مررت به أراه جالسا لا يقوم حتى إلى الصلوات المفروضة! فسألتُ عنه: من هذا؟ فقالوا:

(1) قال الإمام ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره: «هذه الآية الكريمة حاكمة على كلِّ من ادَّعى محبَّة الله، وليس هو على الطَّريقة المحمديَّة فإنَّه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتَّى يتَّبع الشَّرع المحمَّدي والدِّين النَّبوي في جميع أقواله وأحواله، كما ثبت في الصَّحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلا لَيْسَ عليه أمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»، ولهذا قال: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبَّتكم إيَّاه، وهو محبته إيَّاكم، وهو أعظم من الأوَّل، كما قال بعض الحكماء العلماء: ليس الشَّأن أن تُحِبّ، إنَّما الشَّأن أن تُحَبّ، وقال الحسن البصري وغيره من السلف: **زعم قوم أنَّهم يحبُّون الله فابتلاهم الله بهذه الآية**» «تفسير القرآن العظيم» (٢/٣٢).

سبحان الله ما تعرفه! هذا وليٌّ من أولياء الله، وكلّ الناس يشهدون له بالولاية! وقد نذر أنْ لا يقوم من هذا المكان أبداً، فيجلس فقط ويصلي على النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ قالوا: لو كان عندك مشكلة اجلس عنده بدون ما تكلمه وهو يعرف مشكلتك، وهو يلقي في قلبك الدّواء لها».

فالعوام يُخدعون بمثل هذا الكلام، ثُمَّ إذا قيل لهم: فلان جرَّب أوفلانة جرَّبت فلا تسأل عن ركضهم إلى مثل هذا زرافات ووحدانـًا، وهذا هو الضياع بعينه، والله المستعان، وأصبحتْ العبرة في الولاية مثل هذه المقاييس الفاسدة، أمّا الَّتِي في الكتاب والسنَّة لا تجدهم يعرِّجون عليها ولا يقفون عندها.

فأين الولاية بدون الاتباع؟! وأين الصَّلاة المفروضة الَّتِي افترضها الله على عباده وأمر بها ودعا إلى إقامتها في المساجد أتُترك هكذا؟!

وإذا كان الشخص لا يصلِّي ولا يشهد الصَّلاة مع الجماعة فهذا بالتأكيد ولي من أولياء الشيطان، وليس من أولياء الرحمن.

وأين الاقتداء بالرَّسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وبسنَّتِه، ومن أعظم ما يكون في ذلك شأن الصَّلاة، فقد كان بعض المتقدمين إذا أراد أن يذهب إلى مكان ليتلقَّى العلم عن شخص يذهب وينظر في صلاته؛ فإذا وجده من أهلها والمحافظين عليها اطمأنَّ لعلمه وأخذ عنه، وإذا كان مضيِّعـًا لها فهو لما سواها أضيع[1]، «**ولاحظَّ في الإسلام**

---

(١) «عن أبي العالية، قال: كنتُ أرحل إلى الرَّجل مسيرة أيَّام لأسمع منه، فأتفقَّد صلاته، فإن وجدته يحسنها، أقمت عليه، وإنْ أجده يضيِّعها، رحلت ولم أسمع منه، وقلت: هو لما سواها أضيع» «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٢٠٩)، وانظر: (٧/ ١١١).

لمن ترك الصَّلاة»(١)، لأنَّها الميزان الحقيقي لإسلام الشخص.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه **«أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ يُصَلِّي لَهُمْ فِي وَجَعِ النَّبِيِّ ﷺ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ الاِثْنَيْنِ وَهُمْ صُفُوفٌ فِي الصَّلاَةِ، فَكَشَفَ النَّبِيُّ ﷺ سِتْرَ الْحُجْرَةِ يَنْظُرُ إِلَيْنَا، وَهْوَ قَائِمٌ كَأَنَّ وَجْهَهُ وَرَقَةُ مُصْحَفٍ، ثُمَّ تَبَسَّمَ يَضْحَكُ، فَهَمَمْنَا أَنْ نَفْتَتِنَ مِنَ الْفَرَحِ بِرُؤْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَنَكَصَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى عَقِبَيْهِ لِيَصِلَ الصَّفَّ، وَظَنَّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَارِجٌ إِلَى الصَّلاَةِ، فَأَشَارَ إِلَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ أَنْ أَتِمُّوا صَلاَتَكُمْ، وَأَرْخَى السِّتْرَ، فَتُوُفِّيَ مِنْ يَوْمِهِ»**(٢).

تهلَّل وجهه ﷺ والنَّاس يراهم وهم صفوف يصلون في المسجد خلف خير أصحابه أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، فهذه هي الولاية، بالصَّلاة وفي عبادة الله واتِّباع الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام، وهذه علامة واضحة بُيِّنَتْ في القرآن لا تحتاج إلى بيان، لكن مع ذلك التبس على كثير مِنَ العوام والجهَّال، وأصبح بعض العوام لا ينظر إلى هذه العلامة.. وإنما ينظر إلى طول العمامة؛ أو الشكل، وأصبح بعضهم يعتقد أنَّ الولاية نوع من اللِّباس أو زيٍّ معيَّن، أوحركات تُفعل إذا وُجدت أصبحت مقياساً، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران].

يقولون مثلا: (الأولياء لا يطوفون بالبيت، وإنَّما يطوف بهم البيت)، وهذا ليس

(١) رواه مالك في «الموطأ» (٥١)، والمروزي في «تعظيم قدر الصَّلاة» (٩٢٣)، وغيرهما؛ وصحَّحه الألباني في «الإرواء» (٢٠٩)، وانظر: مبحث (مكانة الصَّلاة) من كتاب «تعظيم الصَّلاة» لشيخنا عبد الرَّزَّاق بن عبد المحسن البدر حفظه الله.

(٢) رواه البخاري (٦٨٠)، ومسلم (٤١٩).

كلامًا يقال عنهم فحسب؛ بل كلام موجود في كتبهم ويُنشر بينهم.

وقد حُدِّثتُ عن شخص أنَّه جاء ووصل إلى مكَّة ولم يطف بالكعبة، وقال: الأولياء هم الَّذين يطوف بهم البيت!!.

و المتأمِّل في سيرة إمام الأولياء عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يجد أنَّه ﷺ حجَّ واعتمر أربع مرَّات، فطاف بالبيت طوافًا متكرّرًا، ثُمَّ يدَّعي هؤلاء أنَّ الولي لا يطوف بالبيت وأحقيته ومكانته أنَّ البيت يطوف به!

حتَّى إنَّه في أحد كتب الفقه عُقدت مسألة فقهية!! في كتاب الصَّلاة مبنية على خرافة هؤلاء: إذا ذهبت الكعبة تطوف بالأولياء إلى أين يصلِّي النَّاس؟ قال صاحب الكتاب: اختلف أهل العلم على قولين: قال بعض العلماء يصلُّون إلى الكعبة باعتبار الأصل وباعتبار أنَّ النَّاس لا يستطيعون معرفة أين ذهبت الكعبة، والقول الآخر: لابدَّ أن يتحرَّى النَّاس أين ذهبت الكعبة ويستقبلونها.

فهذا بُحث في أحد الكتب!! و تروَّج عند العوام، وفيها مثل هذه الخرافات ما الله به عليم، وتنشر على أنَّها علامة للأولياء، فلا صلاة ولا طواف ولا عبادة ويُدَّعى أنَّه وليٌّ من أولياء الله!! وهو وليٌّ للشيطان بلا شك ولا ريب، إي واللهِ وليٌّ للشيطان ليس وليًا للرَّحمن، ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٤﴾ [الأنفال]، لأنَّ الولاية بمثل هذا: ضياع والضلال وباطل.

وأيضًا جانب التَّقوى لا تراها فيهم ـ أقصد الغلاة ـ بل تراه يمارس بعض المحرَّمات الصَّريحة الواضحة البيِّنة، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ٣٢﴾ [الإسراء].

لكنَّه يمارسها والعياذ بالله باسم الولاية، وقد قرأتُ في بعض الكتب لهؤلاء وحدَّثني بعض المهتدين منهم: أنَّ المريد يأتي إلى شيخ الطريقة المزعوم أنَّه ولي في ليلة زواجه مع زوجته البكر إلى شيخه ويتوسَّل إليه ويتذلَّل بين يديه أنْ يتكرَّم بافتضاض بكارتها، ثُمَّ يخلو بها ويفتض بكارتها من أجل البركة -زعموا-، ثُمَّ تخرج مِنْ عنده ويقبُّل هذا المريد قدمي شيخه شكراً له على هذا الإحسان، وربَّما أعطاه أيضـًا مالا على إحسانه له.

فهذا يمارس الفواحش والعياذ بالله، وأمور منكرة باسم الولاية، فهؤلاء أولياء الشيطان - إي والله - ليسوا أولياء الله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنفال] .

«فكل من كان مؤمنـًا تقيـًا كان لله وليـًا»(١)، فلما اختلطت الأمور على النَّاس أصبحت هذه العلامة غير واضحة عندهم، وأصبحت الخرافات تُبثُّ والضلالات تنشر بين النَّاس وأصبحتْ هي المقياس.

ولكن قد يغتر العوام عندما تؤتى لهم بقصص وحكايات، ويظنُّون فعلاً أن هذا من أولياء الله، وهذا خطأ عظيم فولي الله علامته واضحة ، وأعظم ما يكون فيه فعل الفرائض، فإذا ضيَّع الفرائض فهو ليس من أولياء الله، ولا تحتاج هذه إلى مفاصلة واضحة؛ ومن ضيَّع الفرائض فهو لما سواها أضيع .

ولهذا فالولاية درجتان بُيِّنت في قوله عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عن الله تعالى في الحديث القدسي: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيءٍ أَحَبَّ

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/٢٢٤).

إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ»(١).

فالأولياء على درجتين:

١. درجة فعل الفرائض؛ فالَّذي يحافظ عليها ويترك المحرمات هذا من أولياء الله، وهي درجة في الولاية.

٢. أعلى منها درجةً: من يفعل الفرائض ويترك المحرمات، وينافس في فعل الرَّغائب والمستحبات، وهذا معنى قوله تعالى: **«ولا يَزالُ عَبْدِي يَتقرَّبُ إليَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أَحْبَبْتُهُ، كُنتُ سَمعَهُ الَّذي يَسمَعُ بِهِ، وبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ بهِ، ويَدَهُ الَّتي يَبطُشُ بها، ورِجْلَهُ الَّتي يَمشي بِها، ولَئِنْ سألَنِي لأُعطِيَنَّهُ، ولَئِنْ استَعاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ»**(٢).

---

(١) رواه البخاري (٦٥٠٢).

(٢) قال العلاَّمة عبد الرَّحمن السَّعدي رَحِمَهُ اللهُ: «هذا حديث جليل، **أشرف حديث في أوصاف الأولياء**، وفضلهم ومقاماتهم.

فأخبر أنَّ معاداة أوليائه معاداة له ومحاربة له، ومنْ كان متصدِّيا لعداوة الرَّب ومحاربة مالك الملك فهو مخذول، ومنْ تكفَّل الله بالذَّبِّ عنه فهو منصور، وذلك لكمال موافقة أولياء الله لله في محابِّه، فأحبَّهم وقام بكفايتهم، وكفاهم ما أهمَّهم.

ثم ذكر صفة الأولياء الصِّفة الكاملة، وأنَّ أولياء الله هم الَّذين تقرَّبوا إلى الله بأداء الفرائض والنوافل أوّلا: منْ صلاة وصيام وزكاة وحج، وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، وجهاد، وقيام بحقوقه وحقوق عباده الواجبة .

ثمَّ انتقلوا من هذه الدرجة إلى التَّقرُّب إليه بالنَّوافل، فإنَّ كل جنس منَ العبادات الواجبة مشروع من جنسه نوافل فيها فضائل عظيمة تكمِّل الفرائض، وتكمِّل ثوابها.

فأولياء الله قاموا بالفرائض والنَّوافل، فتولَّاهم وأحبَّهم وسهَّل لهم كل طريق يوصلهم إلى

الآية الثانية الَّتِي ذكرها المؤلف هي قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المائدة] ذكر لهم أربع علامات:

١. أذلّة على المؤمنين؛ يعني في قلوبهم رحمة للمؤمنين، ومحبّة للخير لهم، ونصح، ودعاء، وتعاون معهم على الخير.

٢. أعزّة على الكافرين؛ قلوبهم فيها عزّة ومنعة، وفيها أيضًا بغضٌ وكراهية للكفّار وأعداء دين الله تبارك وتعالى.

٣. وفيهم أيضًا الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله سبحانه وتعالى ونصرة دينه.

٤. وفيهم أنهم لا يخافون في الله لومة لائم في بيان الحقّ وإيضاحه والدعوة إليه ونشره.

مثل هذه إذا وجدت هذه علامات على أن للإنسان من أولياء الله عَزَّ وَجَلَّ.

ثُمَّ ختم المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعلامة أخيرة في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [يونس].

ثُمَّ ذكر علامتهم عَزَّ وَجَلَّ فقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس]:

رضاه، ووفّقهم وسدّدهم في جميع حركاتهم، فإنْ سمعوا سمعوا بالله، وإنْ أبصروا فلله، وإنْ بطشوا أو مشوا ففي طاعة الله» «بهجة قلوب الأبرار» (ص١٢٤).

والعلماء رحمهم الله يقولون: إذا جُمع بين الإيمان والتَّقوى في آية واحدة أو في نصٍّ واحد؛ يكون الإيمان يتناول العقائد الصَّحيحة وفعل الأوامر، والتَّقوى: البعد عن العقائد الزَّائفة الباطلة وترك النَّواهي، فالإيمان: اعتقاد الأمر الصحيح والعمل بالطَّاعات الَّتِي دلَّ عليها الكتاب والسُنَّة، والتّقوى: البعد عن العقائد الباطلة واتقاؤها، وأيضًا اتقاء المحرمات وما نهى الله عنه تبارك وتعالى ويأتي في مقدِّمة ذلك الشِّرك بالله تعالى، والعياذ بالله.

فذكر لهم علامتان: الإيمان والتَّقوى؛ ولهذا من كان مؤمنًا تقيًّا كان لله وليًّا ـ كما سبق ـ، هذا أمر واضح في كتاب الله سبحانه وتعالى.

ولهذا قال المصنف: «**ثُمَّ صار الأمر عند أكثر من يدعي العلم وأنه من أهل العلم وأنه من هداة الخلق وحفاظ الشرع إلى أن الأولياء لا بد فيهم من ترك اتباع الرَّسول**»؛ يعني أصبحت العلامة للولي : ترك تعاليم الدين، كما ذكرنا من أمثلة سابقة.

«**ومن تبعهم فليس منهم**» يعني من تبع الأنبياء وسار على منهاجهم ليس منهم، لأنَّه لا يكون منهم إلا بترك الاتِّباع هكذا فُهمت الأمور عندهم.

«**ولا بد من ترك الجهاد، فمن جاهد فليس منهم، ولا بد من ترك الإيمان والتقوى فمن تعهد بالإيمان والتقوى فليس منهم**»: هذه المقاييس الَّتِي في الآية تركوها وأصبحت الولاية عندهم بعكس ذلك؛ ولهذا دعا المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه الدَّعوة قال: «**يا ربّنا نسألك العفو والعافية إنك سميع الدعاء**».

قال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى:

[الأصل السادس: ردّ الشبهة التي وضعها الشيطان في ترك القرآن والسنة، واتباع الآراء والأهواء المتفرقة المختلفة؛ وهي: أنّ القرآن والسنة لا يعرفهما إلا المجتهد المطلق، والمجتهد هو الموصوف بكذا وكذا أوصافاً لعلها لا توجد تامة في أبي بكر وعمر؛ فإن لم يكن الإنسان كذلك فليُعرِض عنهما فرضاً حتماً لاشك ولا إشكال فيه، ومن طلب الهدى منهما فهو إما زنديق وإما مجنون؛ لأجل صعوبة فهمها؛ فسبحان الله وبحمده! كم بيّن الله سبحانه شرعاً وقدراً خلقاً وأمراً في ردّ هذه الشبهة الملعونة من وجوه شتى بلغت إلى حد الضروريات العامة، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ [غافر].

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١﴾ [يس].

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين].

الشَّرْحُ:

قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «ردّ الشبهة التي وضعها الشيطان في ترك القرآن والسنة واتباع الآراء

والأهواء المتفرقة المختلفة».

إنَّ الشيطان وضع لأهل الأهواء وأرباب الباطل شبهة صدَّتهم عَنْ كتاب الله وسنَّة رسوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ(١)، وأصبح هؤلاء يروِّجونها بين النَّاس، وكانت النَّتيجة إعراض هؤلاء في التلقِّي والأخذ عَنْ الكتاب والسنة، وأصبحوا يأخذون عن دعاة الباطل وما يوجِّههم إليه أئمّة الضّلال، فوضع لهم شبهة خبيثة:

أولاً: «**لا يقرأُ القرآنَ ولا يتدبَّره إلَّا مجتهد**».

ثانيا: «**لا يكون الإنسان مجتهداً إلَّا بأنْ يكون موصوفاً بصفات كثيرة**» كما قال المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: « **لعلها لا توجد تامة في أبي بكر وعمر**».

بل وصل الأمر بهم إلى قول: «لا يوجد في زماننا مجتهدين».

إذا نستنتج من كلامهم أنَّ قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [النساء:٨٢] أُلغي بهذه الشبهة، وأصبحوا لا يتدبَّرون القرآن، ويقرؤونه إلَّا للبركة فقط وبدون محاولة لفهمه، بل بعضهم ينبِّه غيره ويقول: (**انتبه وأنت تقرأ لا تحاول أنْ تفهم؛ لأنَّك إنْ فهمت شيئًا من القرآن فإنَّ دينك على خطر، يُخشى عليك الانحراف!**).

فإذا قيل له: نهى الله عَزَّوَجَلَّ عن الشِّرك، والدَّليل قوله تعالى كذا، وأمر بكذا والدَّليل قوله كذا، يقول: لا تتكلَّم في هذا، لأنَّ هذا خاص بأهل الاجتهاد.

(١) قال الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: « قال بعض السلف: ما أمر الله تعالى بأمر إلا وللشَّيطان فيه نزغتان: إمَّا إلى تفريط وتقصير، وإمَّا إلى مجاوزة وغلو ولا يبالي بأيِّهما ظفر.

وقد اقتطع أكثر النَّاس إلَّا أقلَّ القليل في هذين الواديين: وادي التقصير، ووادي المجاوزة والتَّعدي، والقليل منهم جدًّا الثَّابت على الصِّراط الَّذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه» «إغاثة اللَّهفان» (١/ ١١٦).

والعلماء رحمهم الله يقولون: الَّذي جاء في القرآن أمور كثيرة واضحة لكلِّ أحد، فلَّما قال الله سبحانه وتعالى (مثلًا): ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ﴾ [البقرة:١٨٥]، فهذه الكلمة واضحة ولا تحتاج إلى اجتهاد ومعرفة بالمقدمات الَّتي ذكروها؟ لأنَّ شهر رمضان معروف عند كلِّ أحد، ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ﴾ [البقرة:١٨٥] نزول القرآن في رمضان أيضًا واضح، والأمثلة في ذلك كثيرة:

من الَّذي لا يفهم قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ﴾ [الإسراء:٣٢] أو ﴿وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنعام:٧٢]، ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ١٠٣﴾ [النساء]، ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ﴾ [النور:٣٠]، ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [النور:٣١].

فهل تحتاج إلى مجتهد مطلق حتَّى يفهم معنى غضِّ البصر؟!

خاطب الله ﷻ النَّاس بلسان عربي معلوم مفهوم يعلمون معناه، وهناك أمور تحتاج إلى استنباطات واجتهادات كما قال الله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ﴾ [النساء:٨٣]، أي دقائق المسائل التي تحتاج إلى فقه واستنباط، أمَّا أنْ يُهجر القرآن ويُترك تدبُّره، ويقال يقرأ فقط للبركة هذه شبهة أردتْ بكثير من الناس إلى الضلال المبين، وأصبحوا معرضين عن كلام الله سبحانه وعن دلالاته، منشغلين بالخرافة وبالأحاديث الموضوعة، وبالقصص الواهية، وبالحكايات وبالمنامات، وبينهم كتاب الله ﷻ وسنَّة نبيه ﷺ ـ نسأل الله العافية ـ.

فهذه شبهة وضعها الشَّيطان لهم وأثَّرت في كثير منهم، من أجل ترك القرآن

والسنَّة واتِّباع الآراء والأهواء المتفرقة المختلفة، وإذا تُرك أخذ الدِّين والتدبُّر للقرآن الكريم وسنَّة النَّبِيِّ ﷺ فمن أين يأخذ الناس دينهم؟ فهذا عين الضَّياع والضلال.

فالشبهة: «**هي أن القرآن والسنة لا يعرفهما إلا المجتهد المطلق**»، هذه مقدمة أولى.

المقدمة الثانية: «**والمجتهد هو الموصوف بكذا وكذا أوصافاً لعلّها لا توجد تامة في أبي بكر وعمر**».

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [النساء].

فالرد إلى الله: الردُّ إلى كتابه، والردُّ إلى الرَّسول عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: الردُّ إلى سنَّته، ولكن على ضوء هذه الشبهة يُخالف القرآن؛ فلا يُردُّ لا إلى الكتاب ولا إلى السنَّة .

قال: «**فإن لم يكن الإنسان كذلك**» يعني: بتلك الأوصاف للمجتهد «**فليعرِض عنهما فرضاً حتماً لاشك ولا إشكال فيه**» هكذا يقولون، وبعضهم بمثل هذه الألفاظ يهزُّ العوام ويخلخل ثوابتهم؛ ويجعل ترك تدبر القرآنفرضًا حتمًا لا شك ولا إشكال فيه.

قال: «**ومن طلب**» يعني هذا كلامهم، «**الهدى منهما**» أي: من الكتاب والسنة، «**فهو إما زنديق**» لأنه خاطر بدينه، «**وإما مجنون**» لأجل صعوبة فهمهما، فهو يحاول

أن يفهم من القرآن ما لا يمكن أن يُفهم منه؛ وهذا نوع من الجنون!!

والشيخ الإمام الشنقيطي رحمه الله في كتابه «أضواء البيان» عند قول الله تعالى في (سورة محمد): ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾ [محمد]، وقف وقفة مطوّلة عند هذا الموضوع، وأورد هذه الشبهة وأجاب عليها بإجابة موفقة، وأشار إلى بعض من قالها، وتوسّع توسّعًا طويلاً في ذلك؛ بل تصلح أن تكون هذه المعاني العظيمة، والتقريرات المفيدة الَّتِي ذكرها رحمه الله في رسالة مفردة(١).

ثُمَّ ختم المؤلِّف رحمه الله رسالته بتسبيح الله وحمده؛ تسبيحه: تنزيهه تبارك وتعالى عن مثل هذه الافتراءات، والقول الباطل في كلامه سبحانه وكلام رسوله عليه الصلاة والسلام.

وحمداً: على نعمة التوفيق للخير والهداية والسَّلامة مِنْ هذه الشُّرور.

قال رحمه الله: «**فسبحان الله وبحمده كم بين الله سبحانه شرعاً وقدراً خلقاً وأمراً في ردّ هذه الشبهة الملعونة من وجوه شتى بلغت إلى حدّ الضروريات العامة، ولكن أكثر الناس لا يعلمون**» أي: هذه الشبهة زيفُها مكشوف تماما، وكم بُيّن في القرآن والسنَّة من الدَّلائل على فساد هذا الكلام وبطلان هذا التَّقرير الفاسد حتَّى أصبح

(١) قال رحمه الله في ذلك الموضع: «يجب على كل مسلم، يخاف العرض على ربِّه، يوم القيامة، أنْ يتأمَّل فيه ليرى لنفسه المخرج من هذه الورطة العظمى، والطَّاعة الكبرى، الَّتي عمت جل بلاد المسلمين منَ المعمورة.

وهي ادِّعاء الاستغناء عن كتاب الله وسنَّة رسوله، استغناءً تامًّا، في جميع الأحكام منْ عبادات ومعاملات، وحدود وغير ذلك، بالمذاهب المدوَّنة »«أضواء البيان» (٧/٢٦٢).

في درجة العلم بها من الدِّين بالضَّرورة، ولكن استطاع الشَّيطان بمكره ومصائده أنْ يُقنع أناسًا بها، فأخذُوا يروِّجونها ويصدُّون بها النَّاس عن كلام الله وكلام رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ.

ثُمَّ ختم بهذه الآيات الكريمة: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٠ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ۝١١﴾ [يس][(١)].

ثُمَّ قال: «آخره» أي: آخر هذا الكتاب أو هذه الرسالة، «**والحمد لله ربّ العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين**»[(٢)].

ونسأل الله جلَّ وعلا بأسمائه الحسنَى وصفاته العلا أنْ يجزي هذا الإمام وغيره منَ أئمة المسلمين على نصحهم وبيانهم ودعوتهم وجهادهم ومجاهدتهم وبذلهم، وأن يجعل ذلك في موازين حسناتهم، وأنْ يلحقنا أجمعين بالصَّالحين من عباده.

ونسأله ﷻ أنْ لا يزيغ قلوبنا، فاللهم ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [آل عمران].

---

(١) قال العلاَّمة صالح الفوزان حفظه الله: «هذه الآيات في المعرضين عن تدبُّر كلام الله وكلام رسوله ﷺ، وفي آخرها الَّذي مَنَّ الله عليه وهو ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ [يس:١١] فهذا مثل الفريقين.

(٢) ختم الرسالة بمثل ما بدأها به بحمد الله والصَّلاة والسَّلام على رسوله، وهذا مِنْ محاسن التَّأليف والتَّعليم، وذلك بالثَّناء على الله أوَّلًا وآخرًا» «سلسلة شرح الرَّسائل» (ص ٥٠).

اللهم أصلح لنا ديننا الَّذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا الَّتِي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا الَّتِي فيها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كلِّ خير والموت راحة لنا من كلِّ شر، اللَّهم زيِّنا بزينة الإيمان، واجعلنا هداة مهتدين غير ضالين ولا مضلين، اللَّهم اهدنا واهد بنا واهد لنا، ويسِّر الهدى لنا، واشرح صدورنا للخير يا ربَّ العالمين، إنَّك سميع الدُّعاء، وأنت أهل الرجاء، وأنت حسبنا ونعم الوكيل.

فهرس المحتويات

مقدمة المحقق.......................... ٥

مقدمة الشارح.......................... ٩

مقدمة المؤلف.......................... ١١

الأصل الأول.......................... ٢٠

الأصل الثاني.......................... ٣٤

الأصل الثالث.......................... ٤٢

الأصل الرابع.......................... ٥٤

الأصل الخامس.......................... ٦٢

الأصل السادس.......................... ٧٦

تم الصف والإخراج الفني

بمكتب لوصيف للتصميم والإشهار

الزقم - ح.ع.ك - وادي سوف - الجزائر

00213 (0) 559 33 27 13

hajizgoum@yahoo.com

لوصيف

لوصيف للتصميم والإشهار

LOUCYEF \ Design & Pub

عازمون على الإبداع

ISBN 978-9931-616-40-5
9 789931 616405